01-سورة الفاتحة -مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾
ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

يُقَالُ لَهَا: الْفَاتِحَةُ أَيْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ خَطًّا وَ بِهَا تُفْتَحُ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ
وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا: أُمُّ الْكِتَابِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ

*و يقال لها الحمد: للحديث فى الترمذى3124 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«الحَمْدُ لِلَّهِ أُمُّ القُرْآنِ وَ أُمُّ الكِتَابِ وَ السَّبْعُ المَثَانِي

*و يقال لها الشفاء للحديث فى سنن الترمذي 2064 - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ
مَرُّوا بِحَيٍّ مِنَ العَرَبِ فَلَمْ يَقْرُوهُمْ وَلَمْ يُضَيِّفُوهُمْ فَاشْتَكَى سَيِّدُهُمْ فَأَتَوْنَا فَقَالُوا: هَلْ عِنْدَكُمْ دَوَاءٌ؟
قُلْنَا: نَعَمْ وَلَكِنْ لَمْ تَقْرُونَا وَلَمْ تُضَيِّفُونَا فَلَا نَفْعَلُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا
فَجَعَلُوا عَلَى ذَلِكَ قَطِيعًا مِنَ الغَنَمِ قَالَ: فَجَعَلَ رَجُلٌ مِنَّا يَقْرَأُ عَلَيْهِ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ فَبَرَأَ
فَلَمَّا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ قَالَ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟»

و يقال لها الصلاة: للحديث فى سنن الترمذي 2953 - فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ: " قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.
يَقُومُ الْعَبْدُ فَيَقُولُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: 2]
فَيَقُولُ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي. فَيَقُولُ {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة: 1]
فَيَقُولُ اللَّهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. فَيَقُولُ {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} فَيَقُولُ: مَجَّدَنِي عَبْدِي
وَهَذَا لِي وَبَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5]
وَآخِرُ السُّورَةِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ يَقُولُ:
{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: 7]

وَ سُمِّيَتْ مَكَّةُ: أُمَّ الْقُرَى لِتَقَدُّمِهَا أَمَامَ جَمِيعِهَا وَجَمْعِهَا مَا سِوَاهَا وَقِيلَ: لِأَنَّ الْأَرْضَ دُحِيَتْ مِنْهَا. وَ صَحَّ تَسْمِيَتُهَا بِالسَّبْعِ الْمَثَانِي
قَالُوا: لِأَنَّهَا تُثَنَّى فِي الصَّلَاةِ فَتُقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ

من فضائلها:-

مسلم (806) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺسَمِعَ نَقِيضًا (=صوتا كصوت الباب إذا فتح)
مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ
فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ فَسَلَّمَ

وَ قَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ:فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَ خَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ "

مسلم (395) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ﷛ عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ» ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ.

فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ: «اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ»فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ: " قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ............

الْكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِ الِاسْتِعَاذَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ* وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الْأَعْرَافِ: 199 200]

و: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ* وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ} [الْمُؤْمِنُونَ: 96 -98]

وَقَالَ تَعَالَى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ* وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فُصِّلَتْ: 34 -36] .

فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ لَيْسَ لَهُنَّ رَابِعَةٌ فِي مَعْنَاهَا وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِمُصَانَعَةِ الْعَدُوِّ الْإِنْسِيِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ لِيَرُدَّهُ عَنْهُ طَبعُهُ الطَّيب الْأَصْلِ إِلَى الْمُوَادَّةِ وَالْمُصَافَاةِ وَيَأْمُرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ الْعَدُوِّ الشَّيْطَانِيِّ لَا مَحَالَةَ إِذْ لَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَ لَا إِحْسَانًا وَ لَا يَبْتَغِي غَيْرَ هَلَاكِ ابْنِ آدَمَ لِشِدَّةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَلَا يَقْبَلُ رَشْوَةً وَ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ شِرِّيرٌ بِالطَّبْعِ وَلَا يَكُفُّهُ عَنْكَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ} [الْأَعْرَافِ: 27]

وَ قَالَ: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[فَاطِرٍ: 6]

وَ قَالَ {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الْكَهْفِ: 50]

وَ قَدْ أَقْسَمَ لِلْوَالِدِ إِنَّهُ لَمِنَ النَّاصِحِينَ وَ كَذَبَ فَكَيْفَ مُعَامَلَتُهُ لَنَا وَ قَدْ قَالَ:

{فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [ص: 82 83]

وَ قَالَ تَعَالَى:{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ* إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النَّحْلِ: 98 99]

و من فوائد الاستعاذة:

البخارى6115 - عن سُلَيْمَانُ بْنُ صُرَدٍ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺوَ نَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ وَ أَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ

وَ مِنْ لَطَائِفِ الِاسْتِعَاذَةِ:

1-أَنَّهَا طَهَارَةٌ لِلْفَمِ مِمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ اللَّغْوِ وَ الرَّفَثِ2- وَ تَطْيِيبٌ لَهُ وَ تَهَيُّؤٌ لِتِلَاوَةِ كَلَامِ اللَّهِ

3-وَ هِيَ اسْتِعَانَةٌ بِاللَّهِ وَ اعْتِرَافٌ لَهُ بِالْقُدْرَةِ وَلِلْعَبْدِ بِالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ عَنْ مُقَاوَمَةِ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُبِينِ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهِ وَدَفْعِهِ إِلَّا اللهُ الَّذِي خَلَقَهُ وَ لَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَ لَا يُدَارَى بِالْإِحْسَانِ بِخِلَافِ الْعَدُوِّ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ فِي ثَلَاثٍ مِنَ الْمَثَانِي

فصل: و الاستعاذة

ه ىَ الِالْتِجَاءُ إِلَى اللَّهِ وَالِالْتِصَاقُ بِجَنَابِهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ

وَ الْعِيَاذَةُ تَكُونُ لِدَفْعِ الشَّرِّ وَاللِّيَاذُ يَكُونُ لِطَلَبِ جَلبِ الْخَيْرِ

كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي:يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ............ وَ مَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّنْ أُحَاذِرُهُ
لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

فَصْلٌ مَعْنَى الِاسْتِعَاذَةِ

وَ مَعْنَى أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
أَيْ: أَسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَنْ يَضُرَّنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ أَوْ يَصُدَّنِي عَنْ فِعْلِ مَا أُمِرْتُ بِهِ أَوْ يَحُثَّنِي عَلَى فِعْلِ مَا نُهِيتُ عَنْهُ
*و (الشيطان) فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مُشْتَقٌّ مِنْ شَطَنَ إِذَا بَعُدَ
فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ وَ بَعِيدٌ بِفِسْقِهِ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ
وَ قِيلَ: مُشْتَقٌّ مِنْ شَاطَ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ
وَ لِهَذَا يُسَمُّونَ كُلَّ مَا تَمَرَّدَ مِنْ جِنِّيٍّ وَ إِنْسِيٍّ وَ حَيَوَانٍ شَيْطَانًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}[الأَنْعَامِ: 112]
*مسلم(510) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ
«إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَإِنَّهُ يَسْتُرُهُ إِذَا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ
فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ فَإِنَّهُ يَقْطَعُ صَلَاتَهُ الْحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ»
قُلْتُ: يَا أَبَا ذَرٍّ مَا بَالُ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْكَلْبِ الْأَحْمَرِ مِنَ الْكَلْبِ الْأَصْفَرِ؟
قَالَ:يَا ابْنَ أَخِي سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَمَا سَأَلْتَنِي فَقَالَ:«الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ»
(= سمي شيطانا لكونه أعقر الكلاب وأخبثها وأقلها نفعا وأكثرها نعاسا)
*و (الرّجيم): فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ أَيْ: أَنَّهُ مَرْجُومٌ مَطْرُودٌ عَنِ الْخَيْرِ كُلِّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:
{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} [الْمُلْكِ: 5]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

(بِسْمِ)

أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى لأن لفظ (اسم) مفرد مضاف فيعم جميع الأسماء الحسنى .

(ٱللَّهِ) هو المألوه المعبود المستحق لإفراده بالعبادة لما اتصف به من صفات الألوهية و هى صفات الكمال.
عَلَمٌ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى يُقَالُ: إِنَّهُ الِاسْمُ الْأَعْظَمُ لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ*هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ* هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الْحَشْر:22-24]

فَأَجْرَى الْأَسْمَاءَ الْبَاقِيَةَ كلها صفات لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وللهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}

وَ قَالَ تَعَالَى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الْإِسْرَاءِ: 110]

*البخاري (7392)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ (الرَّحْمَٰنِ)اسْمٌ عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الرَّحْمَةِ يَخْتَصُّ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى

وَ لِهَذَا قَالَ: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ}[الْفُرْقَانِ: 59]فَذَكَرَ الِاسْتِوَاءَ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنِ لِيَعُمَّ جَمِيعَ خَلْقِهِ بِرَحْمَتِهِ
قَالُوا: فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الرَّحْمَنَ أَشَدُّ مُبَالَغَةً فِي الرَّحْمَةِ لِعُمُومِهَا فِي الدَّارَيْنِ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ
وَ لَمَّا تجمهر مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابِ وَ تَسَمَّى بِرَحْمَنِ الْيَمَامَةِ كَسَاهُ اللَّهُ جِلْبَابَ الْكَذِبِ وَشُهِرَ بِهِ
فَلَا يُقَالُ إِلَّا مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ فَصَارَ يُضرب بِهِ الْمَثَلُ فِي الْكَذِبِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَضَرِ مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ وَأَهْلِ الْوَبَرِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَ الْأَعْرَابِ.

(الرَّحِيمِ) إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ تَعَالَى:{وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الْأَحْزَابِ: 43] فَخَصَّهُمْ بِاسْمِهِ الرَّحِيمِ

*وَ أَمَّا الرَّحِيمُ فَإِنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ غَيْرَهُ حَيْثُ قَالَ:{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التَّوْبَةِ: 128]

كَمَا وَصَفَ غَيْرَهُ بِذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ فِي قَوْلِهِ:{إِنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الْإِنْسَانِ: 2] .
وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى مَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ وَ مِنْهَا مَا لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ كَاسْمِ:-
اللَّهِ وَ الرَّحْمَنِ وَ الْخَالِقِ وَ الرَّزَّاقِ وَ نَحْوِ ذَلِكَ
فَلِهَذَا بَدَأَ بِاسْمِ اللَّهِ وَ وَصَفَهُ بِالرَّحْمَنِ لِأَنَّهُ أَخَصُّ وَ أَعْرَفُ مِنَ الرَّحِيمِ لِأَنَّ التَّسْمِيَةَ أَوَّلًا إِنَّمَا تَكُونُ بِأَشْرَفِ الْأَسْمَاءِ فَلِهَذَا ابْتَدَأَ بِالْأَخَصِّ فَالْأَخَصِّ.
وَ قَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْعَرَبَ لَا تَعْرِفُ الرَّحْمَنَ حَتَّى رَدَّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}الْإِسْرَاءِ:110

وَ لِهَذَا قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةَ لَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لعلى رضي الله عنه:اكْتُبْ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}
فَقَالُوا: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَ لَا الرَّحِيمَ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ

وَ قَالَ تَعَالَى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا}
[الفرقان: 60]
وَ الظَّاهِرُ أَنَّ إِنْكَارَهُمْ هَذَا إِنَّمَا هُوَ جُحود وَ عِنَادٌ وَ تَعَنُّتٌ فِي كُفْرِهِمْ
فَإِنَّهُ قَدْ وُجِدَ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَسْمِيَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِالرَّحْمَنِ

*وَ قَدْ أُنْشِدَ لِبَعْضِ الْجَاهِلِيَّةِ الْجُهَّالِ:-أَلَا ضَرَبَتْ تِلْكَ الفتاةُ هَجِينَهَا ... أَلَا قَضَبَ الرحمنُ رَبِّي يَمِينَهَا
وَقَالَ سَلَامَةُ بن جندب الطُّهَوِيُّ:عَجِلتم عَلَيْنَا عَجْلَتَينَا عليكمُ ... وَمَا يَشَأ الرّحْمَن يَعْقِد ويُطْلِقِ
و اعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة و أئمتها:-

1-الإيمان بأسماء الله و صفاته 2-و أحكام الصفات.

-فيؤمنون مثلا بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة التي اتصف بها المتعلقة بالمرحوم.

فالنعم كلها أثر من آثار رحمته و هكذا في سائر الأسماء.

-يقال في العليم: إنه عليم ذو علم يعلم به كل شيء -قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء.

فصل في فضلها:

1-اذا تعثرت-

سنن أبي داود 4982 - عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ عَنْ رَجُلٍ
قَالَ كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺفَعَثَرَتْ دَابَّةٌ فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَقَالَ: " لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ
فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ
فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ "
قال بن كثير:-فَهَذَا مِنْ تَأْثِيرِ بَرَكَةِ بِسْمِ اللَّهِ وَلِهَذَا تُسْتَحَبُّ فِي أوّل كل عمل وَقَوْلٍ
-وَ تُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ الْوُضُوءِ لِمَا جَاءَ فِي بن ماجه397 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ:
"لا وضوء لمن لم يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ"*قال الشيخ مصطفي العدوى:النفي فيه الكمال لا نفي الاصل

2-تستحب عند الاكل:

مسلم -2022 عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ سَمِعَهُ مِنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: كُنْتُ فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ
وَ كَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي: «يَا غُلَامُ سَمِّ اللهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»

3-تستحب عند الجماع:-

البخارى-141عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَبْلُغُ النَّبِيَّ ﷺقَالَ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ
اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّهُ»

(ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ)

هو الثناء على الله بصفات الكمال و بأفعاله الدائرة بين الفضل و العدل فله الحمد الكامل بجميع الوجوه.
الشُّكْرُ لِلَّهِ خَالِصًا دُونَ سَائِرِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ وَ دُونَ كُلِّ مَا بَرَأَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا أَنْعَمَ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ
الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعَدَدُ وَ لَا يُحِيطُ بِعَدَدِهَا غَيْرُهُ ثَنَاءٌ أَثْنَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَفِي ضِمْنِهِ أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ
فَكَأَنَّهُ قَالَ: قُولُوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}

(رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ)

الرب هو المربي جميع العالمين – و هم من سوى الله- بخلقه إياهم و إعداده لهم الآلات

و إنعامه عليهم بالنعم العظيمة التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء. فما بهم من نعمة فمنه تعالى.

و تربيته تعالى لخلقه نـــــوعان: -

1- عــــامة 2- خــــاصة.

فالعامة:هى خلقه للمخلوقين و رزقــهم و هدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

و الخاصة:-تربيته لأوليائه فيربيهم بالإيمان و يوفقهم له و يكمله لهم و يدفع عنهم الصوارف و العوائق الحائلة بينهم و بينه

و حقيقتها: تربية التوفيق لكل خير و العصمة عن كل شر.

- و لعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب. فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

فدل قوله(رَبِّ الْعَالَمِينَ)على انفراده بالخلق والتدبير والنعم وكمال غناه وتمام فقر العالمين إليه بكل وجه واعتبار.

*وَ الرَّبُّ هُوَ: الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى السَّيِّدِ وَ عَلَى الْمُتَصَرِّفِ لِلْإِصْلَاحِ
وَ كُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى.وَلَا يُسْتَعْمَلُ الرَّبُّ لِغَيْرِ اللَّهِ بَلْ بِالْإِضَافَةِ تَقُولُ: رَبُّ الدَّارِ رَبُّ كَذَا
وَأَمَّا الرَّبُّ فَلَا يُقَالُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

(الْعَالَمِينَ):جَمْعُ عَالَمٍ [وَهُوَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ]
وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْعَالَمُ كُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.
قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ أَنَّهُ شَامِلٌ لِكُلِّ الْعَالَمِينَ كَقَوْلِهِ:

{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}الشعراء 23-24
وَالْعَالَمُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَلَامَةِ (قُلْتُ):لِأَنَّهُ عِلْمٌ دَالٌّ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ وَصَانِعِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ كَمَا قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ:
فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيـــــــــةٌ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

(ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

إنما وصف نفسه "بالرحمن الرحيم "بعد قوله "رب العالمين" ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب

كما قال تَعَالَى: {نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ} [الْحِجْرِ: 49- 50]

وَ قَوْلُهُ تعالى:{ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[الأنعام: 165]

قال: فـــ(الرب) فيه ترهيب و (الرحمن الرحيم) ترغيب.

*مُسْلِم 2755 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَؓ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:-
«لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ
وَ لَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»

(مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ)وَ مَالِكُ مَأْخُوذٌ مِنَ المِلْكِ

كَمَا قَالَ: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [مَرْيَمَ: 40]

وَ قَالَ: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ} [النَّاس: 1 2]

وَ مَلِكٌ: مَأْخُوذٌ مِنَ الْمُلْكِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غَافِر: 16]
وَ تَخْصِيصُ الْمُلْكِ بِيَوْمِ الدِّينِ لَا يَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ
وَ ذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ
وَ إِنَّمَا أُضِيفَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِأَنَّهُ لَا يَدَّعِي أَحَدٌ هُنَالِكَ شَيْئًا وَ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ
كَمَا قَالَ: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [النَّبَأ: 38]

و المَلِك فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ}

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺفى البخارى :6205 - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«أَخْنَى(=أذل وأوضع) الأَسْمَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاَكِ»
*البخارى4812 - عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ
"يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ وَ يَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ "

أَمَّا تَسْمِيَةُ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا بِمَلِكٍ فَعَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا}

وَ فِي البخارى2788: (مِثْلُ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ) وَ الدِّينُ الْجَزَاءُ وَ الْحِسَابُ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ}وَ قَالَ: {أَئِنَّا لَمَدِينُونَ} أَيْ مَجْزِيُّونَ مُحَاسَبُونَ

الـ(مَٰلِكِ): هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر و ينهى و يثيب و يعاقب

و يتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات

و أضاف الملك لـــــــــ(يَوۡمِ ٱلدِّينِ)و هو يوم القيامة

يوم يدان الناس فيه بأعمالهم خيرها و شرها:–لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور

كمال ملكه وعدله وحكمته وانقطاع أملاك الخلائق حتى إنه يستوي في ذلك اليوم الملوك و الرعايا و العبيد

و الأحرار كلهم مذعنون لعظمته خاضعون لعزته منتظرون لمجازاته راجون ثوابه خائفون من عقابه

*فلذلك خصه بالذكر وإلا فهو المالك ليوم الدين و لغيره من الأيام.

(إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ)

أَلْطَفُ فِي التَّوَاضُعِ مِنْ إِيَّاكَ أَعْبُدُ لِمَا فى الثَّانِي من تعظيمه نفسه مِنْ جَعْلِهِ نَفْسَهُ وَحْدَهُ أَهْلًا لِعِبَادَةِ اللَّهِ
تَعَالَى الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْبُدَهُ حقَّ عِبَادَتِهِ وَ لَا يُثْنِيَ عَلَيْهِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ
وَ الْعِبَادَةُ مَقَامٌ عَظِيمٌ يَشْرُفُ بِهِ الْعَبْدُ لِانْتِسَابِهِ إِلَى جَنَابِ اللَّهِ تَعَالَى
وَ قَدْ سَمَّى اللَّهُ رَسُولَهُ بِعَبْدِهِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ فَقَالَ
{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ} [الْكَهْف: 1] {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} [الْجِنّ: 19]

فَسَمَّاهُ عَبْدًا عِنْدَ إِنْزَالِهِ عَلَيْهِ وَ قِيَامِهِ فِي الدَّعْوَةِ وَ إِسْرَائِهِ بِهِ وَ أَرْشَدَهُ إِلَى الْقِيَامِ بِالْعِبَادَةِ فِي أَوْقَاتٍ يَضِيقُ صَدْرُهُ مِنْ تَكْذِيبِ الْمُخَالِفِينَ لَهُ حَيْثُ يَقُولُ:{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الْحِجْر: 97-99] .

❍نخصك وحدك بالعبادة و الاستعانة لأن تقديم المعمول يفيد الحصر و هو إثبات الحكم للمذكور و نفيه عما عداه.

*فكأنه يقول: نعبدك و لا نعبد غيرك و نستعين بك و لا نستعين بغيرك.

*و قدم العبادة على الاستعانة من باب تقديم العام على الخاص و اهتماما بتقديم حقه تعالى على حق عبده.

و (العبادة)

اسم جامع لكل ما يحبه الله و يرضاه من الأعمال و الأقوال الظاهرة و الباطنة.

و(الاستعانة)

1–هى الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع و دفع المضار 2–مع الثقة به في تحصيل ذلك.

3–و القيام بعبادة الله و الاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية و النجاة من جميع الشرور

فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما.

و إنما تكون العبادة عبادة إذا كانت :–

1–مأخوذة عن رسول الله ﷺ 2–مقصودا بها وجه الله. فبهذين الأمرين تكون عبادة

و ذكر (الاستعانة) بعد (العبادة) مع دخولها فيها:–لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى.

فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر و اجتناب النواهي.

الْعِبَادَةُ فِي اللُّغَةِ مِنَ الذِّلَّةِ
يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبّد وَ بَعِيرٌ مُعَبّد أَىْ: مُذَلَّلٌ
وَ فِي الشَّرْعِ: عِبَارَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ وَ الْخُضُوعِ وَ الْخَوْفِ.
وَ قُدِّمَ الْمَفْعُولُ وَ هُوَ {إِيَّاكَ} وَ كُرِّرَ لِلِاهْتِمَامِ وَ الْحَصْرِ
أَىْ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ وَ لَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ
وَهَذَا هُوَ كَمَالُ الطَّاعَةِ. وَ الدِّينُ يَرْجِعُ كُلُّهُ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ
وَ هَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:-الْفَاتِحَةُ سِرُّ الْقُرْآنِ وَ سِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الْفَاتِحَة: 5]
فَالْأَوَّلُ تَبَرُّؤٌ مِنَ الشِّرْكِ
وَ الثَّانِي تَبَرُّؤٌ مِنَ الْحَوْلِ و القوة و التفويض إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.
وَ هَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ كقوله تَعَالَى:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [هُود: 123]
{قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا}[الْمُلْك: 29]{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} [الْمُزَّمِّل: 9]
وَ كَذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} .
وَ تَحَوُّلُ الْكَلَامِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ بِكَافِ الْخِطَابِ وَ هُوَ مُنَاسَبَة :-

لِأَنَّهُ لَمَّا أَثْنَى عَلَى اللَّهِ فَكَأَنَّهُ اقْتَرَبَ وَ حَضَرَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى فَلِهَذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}
وَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالثَّنَاءِ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ الْحُسْنَى
وَإِرْشَادٌ لِعِبَادِهِ بِأَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ بِذَلِكَ وَ لِهَذَا لَا تَصِحُّ صَلَاةُ مَنْ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ وَ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ
كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ﷛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ"
*وَ فِي مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷛عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:"يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ
فَنِصْفُهَا لِي وَ نِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الْفَاتِحَة: 2]........

*وَ إِنَّمَا قَدَّمَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} عَلَى {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَهُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ
وَ الِاسْتِعَانَةُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا وَ الِاهْتِمَامُ وَ الْحَزْمُ هُوَ أَنْ يُقَدَّمَ مَا هُوَ الْأَهَمُّ فَالْأَهَمُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) أى: دلنا و أرشدنا و وفقنا للصراط المستقيم

1–و هو الطريق الواضح الموصل إلى الله و إلى جنته وهو معرفة الحق والعمل به (((لا اعوجاج فيه)))

2–المتـــابعة لله و للرسول فرُوي انه كتاب الله3-الحـــق4-الصـــراط هو الاسلام

*أحمد 17634 -عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ﷛ عَنْ رَسُولِ اللَّهِﷺقَالَ:ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا
وَ عَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَ عَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ
وَ عَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَعَرَّجُوا
وَ دَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ
قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ وَ الصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ وَ السُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ
وَ الْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ وَ ذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ
وَ الدَّاعِي مِنْ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ "
*** كُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ وَ هِيَ مُتَلَازِمَةٌ :-

فَإِنَّ مَنِ اتَّبَعَ النَّبِيَّ ﷺ وَاقْتَدَى بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَدِ اتَّبَعَ الْحَقَّ وَمَنِ اتَّبَعَ الْحَقَّ فَقَدِ اتَّبَعَ
الْإِسْلَامَ وَ مَنِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ فَقَدِ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ وَحَبْلُهُ الْمَتِينُ وَ صِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ فَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ
يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

فالهداية إلى الصراط: 1–لزوم دين الإسلام 2–و ترك ما سواه من الأديان

و الهداية في الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما و عملا.

انواع الهداية:–وَ الْهِدَايَةُ هَاهُنَا: -1-الْإِرْشَادُ 2-وَ التَّوْفِيقُ وَقَدْ تَعَدَّى الْهِدَايَةُ بِنَفْسِهَا كَمَا هُنَا

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}فَتَضَمَّنُ مَعْنَى أَلْهِمْنَا أَوْ وَفِّقْنَا أَوِ ارْزُقْنَا أَوِ اعطِنَا {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [الْبَلَد: 10]

أَيْ: بَيَّنَّا لَهُ الْخَيْرَ وَ الشَّرَّ وَ قَدْ تَعَدَّى بِإِلَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النَّحْل: 121]

وَ ذَلِكَ بِمَعْنَى الْإِرْشَادِ وَ الدَّلَالَةِ وَ كَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشُّورَى: 52]

وَقَدْ تَعَدَّى بِاللَّامِ كَقَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ:-{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا}[الْأَعْرَاف: 43]أَيْ وَفَّقَنَا لِهَذَا وَجَعَلَنَا لَهُ أَهْلًا

وهذا الصراط المستقيم هو:(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين.

هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ حَيْثُ قَالَ:{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا}[النِّسَاءِ: 69 70] .

(غَيْرِ) صراط (ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) الذين عرفوا الحق و تركوه كاليهود و نحوهم.

و غير صراط (وَلَا ٱلضَّآلِّينَ)و أكد الكلام بـــ(وَلَا)لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ ثَمّ مَسْلَكَيْنِ فَاسِدَيْنِ وَ هُمَا طَرِيقَتَا الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى.

إِنَّمَا جِيءَ بِهَا لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى {الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} وَلِلْفَرْقِ بَيْنَ الطَّرِيقَتَيْنِ لِتُجْتَنَبَ كُلٌّ مِنْهُمَا فَإِنَّ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْإِيمَانِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ وَالْيَهُودُ فَقَدُوا الْعَمَلَ وَالنَّصَارَى فَقَدُوا الْعِلْمَ وَلِهَذَا كَانَ الْغَضَبُ لِلْيَهُودِ وَالضَّلَالُ لِلنَّصَارَى لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ وَتَرَكَ اسْتَحَقَّ الْغَضَبَ بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ.

وَالنَّصَارَى لَمَّا كَانُوا قَاصِدِينَ شَيْئًا لَكِنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى طَرِيقِهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ وَهُوَ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ الْحَقِّ ضَلُّوا وَ كُلٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ لَكِنَّ أَخَصَّ أَوْصَافِ الْيَهُودِ الْغَضَبُ كَمَا قَالَ فِيهِمْ: {مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ}] [الْمَائِدَةِ: 60]

وَ أَخَصُّ أَوْصَافِ النَّصَارَى الضَّلَالُ كَمَا قَالَ:{قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [الْمَائِدَةِ: 77]

وَ بِهَذَا جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ.

*الترمذى ت بشار 2954 - عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضُلَّالٌ

–الذين تركوا الحق على جهل وضلال كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن

أولا :–فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة:

1– توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: (رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

2–وتوحيد الإلهية وهو إفراد الله بالعبادة يؤخذ من لفظ:(اللَّهِ) ومن قوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

3–وتوحيد الأسماء والصفات وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى التي أثبتها لنفسه

وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه و قد دل على ذلك لفظ (الْحَمْدُ) كما تقدم.

ثانيا:–و تضمنت إثبات النبوة في قوله:(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

ثالثا:–و إثبات الجزاء على الأعمال في قوله:(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وأن الجزاء يكون بالعدل لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

رابعا:–و تضمنت إثبات القدر و أن العبد فاعل حقيقة خلافا للقدرية و الجبرية. بل تضمنت الرد على

جميع أهل البدع والضلال في قوله:(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

لأنه معرفة الحق والعمل به. وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك.

خامسا:–و تضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة و استعانة في قوله:(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

فالحمد لله رب العالمين.

*اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السورة الكريمة و ه ى سبع آيات :-

1-عَلَى حَمْدِ اللَّهِ وَتَمْجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمُسْتَلْزِمَةِ لِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا

2- وَعَلَى ذِكْرِ الْمَعَادِ وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ

3-وَعَلَى إِرْشَادِهِ عَبِيدَهُ إِلَى سُؤَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَالتَّبَرُّؤِ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ 4-وَإِلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَتَوْحِيدِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى و تَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مُمَاثِلٌ .

4-وَإِلَى سُؤَالِهِمْ إِيَّاهُ الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَتَثْبِيتَهُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُفضي بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى جَوَازِ الصِّرَاطِ الْحِسِّيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ فِي جِوَارِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

5-وَ اشْتَمَلَتْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

6- وَ التَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكَ الْبَاطِلِ لِئَلَّا يُحْشَرُوا مَعَ سَالِكِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ هُمُ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَ الضَّالُّونَ.

وَمَا أَحْسَنَ مَا جَاءَ إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}

وَ حَذْفُ الْفَاعِلِ فِي الْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}

وَ إِنْ كَانَ هُوَ الْفَاعِلَ لِذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ كقوله:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}[المجادلة: 14]

7-وَ كَذَلِكَ إِسْنَادُ الضَّلَالِ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَضَلَّهُمْ بقدره كقوله:

{مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} [الْكَهْفِ: 17] .

وَقَالَ: {مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِىَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الْأَعْرَافِ: 186] .

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْهِدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ لَا كَمَا تَقُولُهُ الْفِرْقَةُ الْقَدَرِيَّةُ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ مِنْ أَنَّ الْعِبَادَ هُمُ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ وَيَفْعَلُونَهُ وَيَحْتَجُّونَ عَلَى بِدْعَتِهِمْ بِمُتَشَابِهٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَيَتْرُكُونَ ما يكون فيه صريحا فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ

وَ قَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: مسلم (2665) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ:

{هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}

قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ»

قال بن كثير:يَعْنِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} [آلِ عِمْرَانَ: 7]

فَلَيْسَ -بِحَمْدِ اللَّهِ-لِمُبْتَدِعٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ لِيَفْصِلَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ مُفَرِّقًا بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ وَلَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .

فَصْلٌ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ قَرَأَ الْفَاتِحَةَ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهَا: آمِينَ [مِثْلَ: يس]

وَ يُقَالُ: أَمِينَ. بِالْقَصْرِ أَيْضًا [مِثْلَ: يَمِينٍ] وَمَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ

وَ الدَّلِيلُ عَلَى استحباب التأمين مسند أحمد مخرجا

18842 عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺقَرَأَ: {وَلَا الضَّالِّينَ}فَقَالَ: «آمِينَ» يَمُدُّ بِهَا صَوْتَهُ

*البخاري 780 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:
إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ –
وَ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ - وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: آمِينَ "
*مسلم (410) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:
إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ آمِينَ وَ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ آمِينَ فَوَافَقَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ
*مسلم -404 عن أبي موسي ﷺ مرفوعا"إِذَا صَلَّيْتُمْ فَأَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَحَدُكُمْ فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا
وَإِذْ قَالَ(((يعني الامام))) {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: 7]فَقُولُوا: آمِينَ يُجِبْكُمُ اللهُ
*ابن ماجه -856 عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:
«مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَ التَّأْمِينِ»

02-سورة البقرة-مدنية-بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢

ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣

وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥

*مسلم -780عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ﷛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:
لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»
*مسلم (804) عن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ﷛ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:-
«اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَ تَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَ لَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ(=السَّحَرَةُ)»

تقدم الكلام على البسملة.

و أما الحروف المقطعة في أوائل السور فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثا بل لحكمة لا نعلمها.

أصناف الناس فى العبادة 1-20 أولا :-صفات المؤمنين 1-5

(الٓمٓ)

مَجْمُوعُ الْحُرُوفِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ بِحَذْفِ الْمُكَرَّرِ مِنْهَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفًا وهِىَ:
ال م ص ر ك ي ع ط س ح ق ن يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ: (((نَصٌّ حَكِيمٌ قَاطِعٌ لَهُ سِرٌّ))) وَ هِىَ نِصْفُ الْحُرُوفِ عَدَدًا
*وَ لِهَذَا كُلُّ سُورَةٍ افْتُتِحَتْ بِالْحُرُوفِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا الِانْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ وَ بَيَانُ إِعْجَازِهِ وَ عَظَمَتِهِ وَ هَذَا مَعْلُومٌ بِالِاسْتِقْرَاءِ وَ هُوَ الْوَاقِعُ فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سُورَةً وَ لِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى:
{الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ} [الْبَقَرَةِ: 1 2] .
{الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ* نزلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [آلِ عِمْرَانَ: 1-3] .
وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ لمن أمعن النظر

و قوله(ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ)العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين و المتأخرين من العلم العظيم و الحق المبين.

فـــــــــ(لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ)و لا شك بوجه من الوجوه و نفي الريب عنه يستلزم ضده إذ ضد الريب و الشك" اليقين" فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك و الريب

و هذه قاعدة مفيدة:- أن النفي المقصود به المدح لا بد أن يكون متضمنا لضده و هو الكمال
(((لأن النفى عدم و العدم المحض لا مدح فيه)))

-فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال:(هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)

و الهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة و الشبه و ما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة

و قال

(هُدًى)و حذف المعمول فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية و لا للشيء الفلاني لإرادة العموم

و أنه هدى لجميع مصالح الدارين فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية و الفروعية

و مبين للحق من الباطل والصحيح من الضعيف

و مبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم.

و قال في موضع آخر: {هُدًى لِلنَّاسِ} [البقرة: 185]فعمم و فى هذا الموضع و غيره

(هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) لأنه في نفسه هدى لجميع الخلق.

فالأشقياء لم يرفعوا به رأسا و لم يقبلوا هدى الله فقامت عليهم به الحجة ولم ينتفعوا به لشقائهم

و أما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية و هو التقوى التي حقيقتها:

1-اتخاذ ما يقي سخط الله و عذابه بامتثال أوامره

2-و اجتناب النواهي فاهتدوا به و انتفعوا غاية الانتفاع.

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال: 29]

-فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية و الآيات الكونية.

و لأن الهداية نوعان: - 1-هداية البيان 2- وهداية التوفيق.

فالمتقون حصلت لهم الهدايتان وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق.

و هداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية تامة .

وَ خُصَّتِ الْهِدَايَةُ للمتَّقين. كما قَالَ:{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [فُصِّلَتْ: 44] .إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى اخْتِصَاصِ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّفْعِ بِالْقُرْآنِ لِأَنَّهُ هُوَ فِي نَفْسِهِ هُدًى وَ لَكِنْ لَا يَنَالُهُ إِلَّا الْأَبْرَارُ

*ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة لتضمن التقوى لذلك فقال:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل المتضمن لانقياد الجوارح

و ليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر.

إنما الشأن في الإيمان بالغيب الذي لم نره و لم نشاهده و إنما نؤمن به لخبر الله و خبر رسوله.

فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر لأنه تصديق مجرد لله و رسله.

فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به أو أخبر به رسوله سواء شاهده أو لم يشاهده و سواء فهمه و عقله أو لم يهتد إليه عقله و فهمه.

بخلاف الزنادقة و المكذبين بالأمور الغيبية لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم ومرجت أحلامهم.

و زكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

و يدخل في الإيمان بالغيب الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة و أحوال الآخرة و حقائق أوصاف الله و كيفيتها و ما أخبرت به الرسل من ذلك

فيؤمنون بصفات الله و وجودها و يتيقنونها و إن لم يفهموا كيفيتها.

أَمَّا الْإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ فَيُطْلَقُ عَلَى التَّصْدِيقِ الْمَحْضِ وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي الْقُرْآنِ وَالْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} [التَّوْبَة: 61]

وَ كَمَا قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لِأَبِيهِمْ: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يُوسُفَ: 17]

وَ كَذَلِكَ إِذَا اسْتُعْمِلَ مَقْرُونًا مَعَ الْأَعْمَالِ؛ كَقَوْلِهِ: {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الِانْشِقَاقِ: 25 وَالتِّينِ: 6]
فَأَمَّا إِذَا اسْتُعْمِلَ مُطْلَقًا فَالْإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ الْمَطْلُوبُ لَا يَكُونُ إِلَّا اعْتِقَادًا وَقَوْلًا وَعَمَلًا.
*هَكَذَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَكْثَرُ الْأَئِمَّةِ بَلْ قَدْ حَكَاهُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَبُو عُبَيد وَغَيْرُ وَاحِدٍ إِجْمَاعًا:
أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَ عَمَلٌ يَزِيدُ وَ يَنْقُصُ.

{يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}قَالَ: يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَنَّتِهِ وَنَارِهِ وَلِقَائِهِ وَيُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَبِالْبَعْثِ فَهَذَا غَيْبٌ كُلُّهُ.
*** أَمَّا الغيب فَمَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ مِنْ أَمْرِ الْجَنَّةِ وَأَمْرِ النَّارِ وَمَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ.
*** بِالْقَدَرِ. فَكُلُّ هَذِهِ مُتَقَارِبَةٌ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ

لِأَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ.ثم قال:(وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ)

لم يقل: يفعلون الصلاة أو يأتون بالصلاة لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة.

فإقامة الصلاة *إقامتها ظاهرا:– بإتمام أركانها و واجباتها و شروطها.

*و إقامتها باطنا:– بإقامة روحها (((و هو حضور القلب فيها و تدبر ما يقوله و يفعله منها)))

فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها:{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}[العنكبوت: 45]

وهي التي يترتب عليها الثواب.فلا ثواب للإنسان من صلاته إلا ما عقل منها ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال:(وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ)-يدخل فيه النفقات الواجبة ((كالزكاة))
والنفقة على الزوجات و الأقارب و المماليك ونحو ذلك.
و النفقات المستحبة بجميع طرق الخير.
-و لم يذكر المنفق عليهم لكثرة أسبابه و تنوع أهله و لأن النفقة من حيث هي قربة إلى الله
و أتى بــــــــ« من » الدالة على التبعيض لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءا يسيرا من أموالهم
غير ضار لهم ولا مثقل بل ينتفعون هم بإنفاقه وينتفع به إخوانهم.
و في قوله:(رَزَقْنَاهُمْ) إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم ليست حاصلة بقوتكم وملككم
و إنما هي رزق الله الذي خولكم وأنعم به عليكم فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده
فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم و واسوا إخوانكم المعدمين.
و كثيرا ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن:-
- لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود -و الزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده
فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود وسعيه في نفع الخلق كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه فلا إخلاص ولا إحسان.

*البخاري 8 -عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺبُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ(=كالدعائم بالنسبة للبناء لا وجود له إلا بها):شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ

ثم قال:(وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ) و هو القرآن و السنة قال تعالى:

{ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا [النساء: 113]

فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول و لا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه فيؤمنون ببعضه ولا يؤمنون ببعضه
إما بجحده أو تأويله على غير مراد الله ورسوله كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة
الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم بما حاصله عدم التصديق بمعناها و إن صدقوا بلفظها فلم يؤمنوا بها إيمانا حقيقيا.

و قوله:(وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ)يشمل الإيمان بالكتب السابقة و يتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسل
و بما اشتملت عليه خصوصا التوراة و الإنجيل و الزبور و هذه خاصية المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية
و بجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال:-(وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)بِالْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ.

وَ إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْآخِرَةُ لِأَنَّهَا بَعْدَ الدُّنْيَا

و « الآخرة » اسم لما يكون بعد الموت و خصه بالذكر بعد العموم لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان و لأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل

و « اليقين » هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك الموجب للعمل.

(أُوْلَٰٓئِكَ)أى: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة (عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ)

أَنَّهُمْ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَ بُرْهَانٍ وَ اسْتِقَامَةٍ وَ سَدَادٍ بِتَسْدِيدِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ وَ تَوْفِيقِهِ لَهُمْ

أي: على هدى عظيم لأن التنكير للتعظيم

و أى هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة:–للعقيدة الصحيحة و الأعمال المستقيمة

و هل الهداية الحقيقية إلا هدايتهم وما سواها مما خالفها فهو ضلالة.

–و أتى بـ « على » في هذا الموضع الدالة على الاستعلاء

–و فى الضلالة يأتي بـ « في » كما في قوله: {وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ} [سبأ: 24]

لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى مرتفع به وصاحب الضلال منغمس فيه محتَقر.

ثم قال:(وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ)

الْمُنْجِحون الْمُدْرِكُونَ مَا طَلَبُوا عِنْدَ اللَّهِ بِأَعْمَالِهِمْ وَ إِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ مِنَ:-

1-الْفَوْزِ بِالثَّوَابِ 2-وَ الْخُلُودِ فِي الْجَنَّاتِ3-وَ النَّجَاةِ مِمَّا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْعِقَابِ

–و الفلاح هو الفوز بالمطلوب و النجاة من المرهوب حصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم و ما عدا تلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك.

فلهذا لما ذكر صفات المؤمنين حقا ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم المعاندين للرسول فقال:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ
وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ
وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ
لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ
﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾
ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ
فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا
فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) يخبر تعالى أن الذين كفروا أي: اتصفوا بالكفر و انصبغوا به و صار وصفا لهم لازما

صفات الكافرين 6-7

*غطوا الحق و ستروه

*إنهم مستمرون على كفرهم فـ(سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ)

لا يردعهم عنه رادع و لا ينجع فيهم وعظ

و حقيقة الكفر: هو الجحود لما جاء به الرسول أو جحد بعضه

فهؤلاء الكفار لا تفيدهم الدعوة إلا إقامة الحجة و كأن في هذا قطعا لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم

و أنك لا تأس عليهم و لا تذهب نفسك عليهم حسرات 6

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان فقال:(خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ)

طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان و لا ينفذ فيها فلا يعون ما ينفعهم ولا يسمعون ما يفيدهم.

وَ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْخَتْمِ وَ الطَّبْعِ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ مُجَازَاةً لِكُفْرِهِمْ

كَمَا قَالَ: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} وَذِكْرُ حَدِيثِ تَقْلِيبِ الْقُلُوبِ:-

*مسلم قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا
فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَ أَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ
حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ
وَ الْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَ لَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»

*عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ ونزع وَاسْتَعْتَبَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ
حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الْمُطَفِّفِينَ: 14]
ثُمَّ قَالَ ابْنُ جرير:فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺأَنَّ:-الذُّنُوبَ إِذَا تَتَابَعَتْ عَلَى الْقُلُوبِ أَغْلَقَتْهَا
وَ إِذَا أَغْلَقَتْهَا أَتَاهَا حِينَئِذٍ الْخَتْمُ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى وَ الطَّبْعُ فَلَا يَكُونُ لِلْإِيمَانِ إِلَيْهَا مَسْلَكٌ
وَ لَا لِلْكُفْرِ عَنْهَا مُخَلِّصٌ فَذَلِكَ هُوَ الْخَتْمُ وَ الطَّبْعُ الَّذِي ذُكِرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
{خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ}نَظِيرُ الطَّبْعِ وَ الْخَتْمِ عَلَى مَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ مِنَ الْأَوْعِيَةِ وَالظُّرُوفِ
الَّتِي لَا يُوصَلُ إِلَى مَا فِيهَا إِلَّا بِفَضِّ ذَلِكَ عَنْهَا ثُمَّ حَلِّهَا
فَكَذَلِكَ لَا يَصِلُ الْإِيمَانُ إِلَى قُلُوبِ مَنْ وَصَفَ اللَّهُ أَنَّهُ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ فَضِّ خَاتَمِهِ
وحَلّه رِبَاطَهُ عَنْهَا .
وَ اعْلَمْ أَنَّ الْوَقْفَ التَّامَّ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ} وَ قَوْلُهُ {وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}
جُمْلَةٌ تَامَّةٌ فَإِنَّ الطَّبْعَ يَكُونُ عَلَى الْقَلْبِ وَعَلَى السَّمْعِ وَ الْغِشَاوَةَ -وَ هِيَ الْغِطَاءُ-تَكُونُ عَلَى الْبَصَرِ
(وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ)غشاء و غطاء و أكنة تمنعها عن النظر الذي ينفعهم
و هذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم فلا مطمع فيهم و لا خير يرجى عندهم
و إنما منعوا ذلك و سدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم و جحودهم و معاندتهم بعد ما تبين لهم الحق
كما قال تعالى:{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: 110]
فنحول بينها و بين الانتفاع بآيات الله فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بآيات القرآن عند نزولها أول مرة
و هذا عقاب عاجل ثم ذكر العقاب الآجل فقال:(وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ)و هو عذاب النار و سخط الجبار 7

صفات المنافقين 8-20

*لَمَّا تَقَدَّمَ وَصْفُ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ بِأَرْبَعِ آيَاتٍ
ثُمَّ عَرَّفَ حَالَ الْكَافِرِينَ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ
شَرَعَ تَعَالَى فِي بَيَانِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ
وَ لَمَّا كَانَ أَمْرُهُمْ يَشْتَبِهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِمْ بِصِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ كُلٌّ مِنْهَا نِفَاقٌ
كَمَا أَنْزَلَ سُورَةَ بَرَاءَةٌ فِيهِمْ وَسُورَةَ الْمُنَافِقِينَ فِيهِمْ وَ ذَكَرَهُمْ فِي سُورَةِ النُّورِ وَغَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ
تَعْرِيفًا لِأَحْوَالِهِمْ لِتُجْتَنَبَ وَ يُجْتَنَبُ مَنْ تَلَبَّسَ بِهَا أَيْضًا
*وَ إِنَّمَا نَزَلَتْ صِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ فِي السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ لِأَنَّ مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا نِفَاقٌ بَلْ كَانَ خِلَافُهُ
مِنَ النَّاسِ مَنْ كَانَ يُظْهِرُ الْكُفْرَ مُسْتَكْرَهًا وَ هُوَ فِي الْبَاطِنِ مُؤْمِنٌ
فلمّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺإِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ بِهَا الْأَنْصَارُ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَكَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَعْبُدُونَ
الْأَصْنَامَ عَلَى طَرِيقَةِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَ بِهَا الْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى طَرِيقَةِ أَسْلَافِهِمْ
وَ كَانُوا ثَلَاثَ قَبَائِلَ: بَنُو قَيْنُقَاعٍ حُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ وَ بَنُو النَّضِيرِ وَ بَنُو قُرَيْظَةَ حُلَفَاءُ الْأَوْسِ
فلمّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺالمدينة و أسلم من أسلم مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ قَبِيلَتَيِ الْأَوْسِ وَ الْخَزْرَجِ
وَ قَلَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْيَهُودِ إِلَّا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلام رضي الله عنه
وَ لَمْ يَكُنْ إِذْ ذَاكَ نِفَاقٌ أَيْضًا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدُ شَوْكَةٌ تُخَافُ

بَلْ قَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَادَعَ الْيَهُودَ وَ قَبَائِلَ كَثِيرَةً مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَوَالَيِ الْمَدِينَةِ
فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ الْعُظْمَى وَ أَظْهَرَ اللَّهُ كَلِمَتَهُ وَ أَعْلَى الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ
قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولَ وَ كَانَ رَأْسًا فِي الْمَدِينَةِ وَ هُوَ مِنَ الْخَزْرَجِ وَ كَانَ سَيِّدَ الطَّائِفَتَيْنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
وَ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يُمَلِّكُوهُ عَلَيْهِمْ فَجَاءَهُمُ الْخَيْرُ وَأَسْلَمُوا وَاشْتَغَلُوا عَنْهُ فَبَقِيَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ
وَأَهْلِهِ فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍقَالَ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّه فَأَظْهَرَ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ
وَ دَخَلَ مَعَهُ طَوَائِفُ مِمَّنْ هُوَ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَ نِحْلَتِهِ وَ آخَرُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَمِنْ ثَمّ وُجِدَ النِّفَاقُ فِي أَهْلِ
الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْأَعْرَابِ فَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُهَاجِرُ مكرَهًا
بَلْ يُهَاجِرُ وَيَتْرُكُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَأَرْضَهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.
وَ لِهَذَا نَبَّه اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ لِئَلَّا يَغْتَرَّ بِظَاهِرِ أَمْرِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ فَيَقَعُ بِذَلِكَ فَسَادٌ عَرِيضٌ مِنْ
عَدَمِ الِاحْتِرَازِ مِنْهُمْ وَ مِنَ اعْتِقَادِ إِيمَانِهِمْ وَهُمْ كُفَّارٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَ هَذَا مِنَ الْمَحْذُورَاتِ الْكِبَارِ أَنْ يُظَنَّ
بِأَهْلِ الْفُجُورِ خَيْر فَقَالَ تَعَالَى:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}
أَيْ: يَقُولُونَ ذَلِكَ قَوْلًا لَيْسَ وَرَاءَهُ شَيْءٌ آخَرُ
كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} [الْمُنَافِقُونَ: 1]
إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فَقَطْ لَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَ لِهَذَا يُؤَكِّدُونَ فِي الشَّهَادَةِ بِإِنْ وَ لَامِ التَّأْكِيدِ فِي خَبَرِهَا
كَمَا أكَّدوا قَوْلَهُمْ: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ} وَ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَمَا أكْذبهم اللَّهُ فِي شَهَادَتِهِمْ
وَفِي خَبَرِهِمْ هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى اعْتِقَادِهِمْ بِقَوْلِهِ:
{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [الْمُنَافِقُونَ: 1] وَ بِقَوْلِهِ {وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}
و اعلم أن النفاق هو: إظهار الخير و إبطان الشر
و يدخل فى هذا التعريف :-1-النفاق الاعتقادى2-و النفاق العملى
كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله-:آية المنافق ثلاث: -
إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان »و في رواية: « وإذا خاصم فجر »
و أما النفاق الاعتقادى المخرج عن دائرة الإسلام يخلد صاحبه في النار
فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة و غيرها
ولم يكن النفاق موجودا قبل هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة و بعد أن هاجر فلما كانت وقعة « بدر »
و أظهر الله المؤمنين و أعزهم ذل من في المدينة ممن لم يسلم فأظهر بعضهم الإسلام خوفا و مخادعة
و لتحقن دماؤهم و تسلم أموالهم فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم
و فى الحقيقة ليسوا منهم. فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلا أحوالهم و وصفهم بأوصاف يتميزون بها
لئلا يغتر بهم المؤمنون ولينقمعوا أيضا عن كثير من فجورهم قال تعالي :-
{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ} [التوبة: 64]
فوصفهم الله بأصل النفاق فقال:-(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فأكذبهم الله بقوله:

(وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ)لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب و اللسان 8

يعتقدون بجهلهم أنهم (يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟)بإظهارهم الإيمان و إضمارهم الكفر

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا}[النساء: 142]

و المخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئا و يبطن خلافه لكي يتمكن من مقصوده ممن يخادع

فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله و عباده هذا المسلك فعاد خداعهم على أنفسهم

فإن هذا من العجائب لأن المخادع:-

1- إما أن ينتج خداعه و يحصل له ما يريد2- أو يسلم لا له و لا عليه و هؤلاء عاد خداعهم عليهم

و كأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم و إضرارها و كيدها

لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم شيئا و عباده المؤمنون

لا يضرهم كيدهم شيئا فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان فسلمت بذلك أموالهم و حقنت دماؤهم

و صار كيدهم في نحورهم و حصل لهم بذلك الخزي و الفضيحة في الدنيا و الحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة و النصرة.

ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجع المفجع بسبب كذبهم و كفرهم و فجورهم

(وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)و الحال أنهم من جهلهم و حماقتهم لا يشعرون بذلك 9

(فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا)و المراد بالمرض هنا:- مرض الشك و الشبهات و النفاق

لأن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته و اعتداله:

1-مرض الشبهات الباطلة2- و مرض الشهوات المردية

-فالكفر و النفاق و الشكوك و البدع كلها من مرض الشبهات

-و الزنا و محبة الفواحش والمعاصي و فعلها من مرض الشهوات كقوله:{فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}[الأحزاب: 32]

و هي شهوة الزنا و المعافى من عوفي من هذين المرضين فحصل له:-

1-اليقين و الإيمان و الصبر عن كل معصية فرفل في أثواب العافية.

(فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا)بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصى على العاصين

و أنه بسبب ذنوبهم السابقة يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها

كما قال تعالى:{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}[الأنعام: 110]

و قال تعالى:{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [الصف: 5]

و قال تعالى:{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: 125]

فعقوبة المعصية المعصية بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها قال تعالى:-

{وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا} [مريم: 76].

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ) 10

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ)أى: إذا نُهِىَ هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض

و هو العمل بالكفر و المعاصى و منه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم و موالاتهم للكافرين

(قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض و إظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح

قلبا للحقائق و جمعا بين فعل الباطل و اعتقاده حقا

(((و هذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية مع اعتقاد أنها معصية)))فهذا أقرب للسلامة و أرجى لرجوعه 11

و لما كان في قولهم:(إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)حصر للإصلاح في جانبهم – و فى ضمنه أن المؤمنين ليسوا من

أهل الإصلاح – قلب الله عليهم دعواهم بقوله:(أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ)

فإنه لا أعظم فسادا ممن كفر بآيات الله و صد عن سبيل الله و خادع الله و أولياءه

و والى المحاربين لله ورسوله و زعم مع ذلك أن هذا إصلاح فهل بعد هذا الفساد فساد؟ !!

و لكن لا يعلمون علما ينفعهم و إن كانوا قد علموا بذلك علما تقوم به عليهم حجة الله

*و إنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفسادا :-

لأنه يتضمن فساد ما على وجه الأرض من الحبوب و الثمار و الأشجار و النبات بما يحصل فيها من الآفات

بسبب المعاصى

*و لأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله و الإيمان به لهـــــــذا"-

1-خلق الله الخلق 2-و أسكنهم في الأرض 3-و أدر لهم الأرزاق ليستعينوا بها على طاعته و عبادته

فإذا عمل فيها بضده كان سعيا فيها بالفساد فيها و إخرابا لها عما خلقت له 12

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ)للمنافقين(ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ)أى:كإيمان الصحابة ﷺو هو الإيمان بالقلب و اللسان

(قَالُوٓاْ)بزعمهم الباطل:-(أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ؟)يعنون – قبحهم الله – الصحابة ﷺبزعمهم أن :-

1-سفههم أوجب لهم الإيمان2- و ترك الأوطان 3-و معاداة الكفار

و العقل عندهم يقتضي ضد ذلك فنسبوهم إلى السفه و فى ضمنه أنهم هم العقلاء أرباب الحجى و النهى.

(أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ)فرد الله ذلك عليهم و أخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة

لأن حقيقة السفه :-

1-جهل الإنسان بمصالح نفسه

2- و سعيه فيما يضرها و هذه الصفة منطبقة عليهم و صادقة عليهم

كما أن العقـــــل و الحجـــــا:-

معرفة الإنسان بمصالح نفسه و السعي فيما ينفعه و فى دفع ما يضره

و هذه الصفة منطبقة على الصحابة و المؤمنين و صادقة عليهم

فالعبرة بالأوصاف و البرهان لا بالدعاوى المجردة و الأقوال الفارغة 13

ثم قال تعالى:(وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا)هذا من قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم

و ذلك أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم على طريقتهم و أنهم معهم

(وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ)

رؤسائهم و كبرائهم في الشر-رُؤَسَاءِهِمْ من أحبار اليهود و رؤوس الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ.

(قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ)كانوا يَسْتَخِفُّون بالمؤمنين و يسخرون منهم.

قالوا: إنا معكم في الحقيقة و إنما نحن مستهزئون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أنا على طريقتهم فهذه حالهم الباطنة و الظاهرة و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله 14

(ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)و هذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده

فمن استهزائه بهم :-

1-زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء و الحالة الخبيثة حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين لما لم يسلط الله المؤمنين

2-و من استهزائه بهم يوم القيامة أنه يعطيهم مع المؤمنين نورا ظاهرا فإذا مشى المؤمنون بنورهم طفئ نور المنافقين و بقوا في الظلمة بعد النور متحيرين فما أعظم اليأس بعد الطمع

{ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [الحديد: 14]

(وَيَمُدُّهُمْ)يزيدهم (فِى طُغْيَـٰنِهِمْ)فجورهم و كفرهم-المجاوزة في الشيء كقوله{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [الحَاقَّة: 11]

(يَعْمَهُونَ)حائرون مترددون و هذا من استهزائه تعالى بهم.

*كلما أحدثوا ذنبا احدث لهم نعمة و هى فى الحقيقة نقمة

{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: -45-44] 15

*ثم قال تعالى كاشفا عن حقيقة أحوالهم:(أُو۟لَـٰٓئِكَ)المنافقون الموصوفون بتلك الصفات

(ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ)
وَ حَاصِلُ قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ فِيمَا تَقَدَّمَ:أَنَّ الْمُنَافِقِينَ عَدَلوا عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ
وَ اعْتَاضُوا عَنِ الْهُدَى بِالضَّلَالَةِ وَ هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى}بَذَلُوا الْهُدَى ثَمَنًا لِلضَّلَالَةِ
*وَ سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مِنْ كَانَ مِنْهُمْ قَدْ حَصَلَ لَهُ الْإِيمَانُ ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ إِلَى الْكُفْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ:
{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [الْمُنَافِقُونَ: 3]
*أَوْ أَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى كَمَا يَكُونُ حَالُ فَرِيقٍ آخَرَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ أَنْوَاعٌ وَأَقْسَامٌ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
{فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} أَيْ: مَا رَبِحَتْ صَفْقَتُهُمْ فِي هَذِهِ الْبَيْعَةِ

{وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ }رَاشِدِينَ فِي صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ.

*رغبوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلعة التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان النفيسة.

و هذا من أحسن الأمثلة فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة و جعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن

فبذلوا الهدى رغبة عنه بالضلالة رغبة فيها فهذه تجارتهم فبئس التجارة و بئس الصفقة صفقتهم .

و إذا كان من بذل دينارا في مقابلة درهم خاسرا فكيف من بذل جوهرة و أخذ عنها درهما؟

«فكيف من بذل الهدى في مقابلة الضلالة و اختار الشقاء على السعادة و رغب في سافل الأمور عن عاليها ؟»

فما ربحت تجارته بل خسر فيها أعظم خسارة.

{قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الزمر: 15] 16
*ثم ذكر مثلهم الكاشف لها غاية الكشف فقال:-

مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ
لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ
يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ
كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ
٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ
فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا
فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣
فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤

(مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا)مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد نارا

أي:كان في ظلمة عظيمة وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره ولم تكن عنده معدة بل هي خارجة عنه

(فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ)و نظر المحل الذي هو فيه و ما فيه من المخاوف و أَمِنَها

و انتفع بتلك النار و قرت بها عينه و ظن أنه قادر عليها فبينما هو كذلك

إذ (ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ)فذهب عنه النور و ذهب معه السرور

(وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ)

و بقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة فذهب ما فيها من الإشراق و بقي ما فيها من الإحراق

فبقي في ظلمات متعددة: –ظلمة الليل–و ظلمة السحاب –و ظلمة المطر–و الظلمة الحاصلة بعد النور

(((الظلمات: الشك و الكفر و النفاق)))

فكيف يكون حال هذا الموصوف؟

فكذلك هؤلاء المنافقون استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين و لم تكن صفة لهم فانتفعوا بها و حقنت بذلك دماؤهم و سلمت أموالهم وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا

فبينما هم على ذلك إذ هجم عليهم الموت فسلبهم الانتفاع بذلك النور وحصل لهم كل هم و غم و عذاب و حصل لهم ظلمة القبر و ظلمة الكفر و ظلمة النفاق و ظلم المعاصي على اختلاف أنواعها و بعد ذلك ظلمة النار و بئس القرار .

وَ فِي هَذَا الْمَثَلِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ تَعَالَى فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ 17

(صُمٌّ)عن سماع الخير (بُكْمٌ)عن النطق به (عُمْيٌ)عن رؤية الحق(فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه فلا يرجعون إليه بخلاف من ترك الحق عن جهل و ضلال

فإنه لا يعقل و هو أقرب رجوعا منهم 18

ثم قال تعالى:(أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ)أو مثلهم كصيب و هو المطر الذي يصوب أى: ينزل بكثرة

(فِيهِ ظُلُمَٰتٌ)ظلمة الليل و ظلمة السحاب و ظلمات المطر

(وَرَعْدٌ)و هو الصوت الذي يسمع من السحاب[وَ هُوَ مَا يُزْعِجُ الْقُلُوبَ مِنَ الْخَوْفِ]

فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ الْخَوْفَ الشَّدِيدَ وَ الْفَزَعَ كقوله:{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ}[الْمُنَافِقُونَ: 4]

(وَبَرْقٌ)و هو الضوء اللامع المشاهد مع السحاب

هُوَ مَا يَلْمَعُ فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الضَّرْبِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ 18

(يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ)جَمْعُ صَاعِقَةٍ وَ هِيَ نَارٌ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَقْتَ الرَّعْدِ الشَّدِيدِ

(حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ)وَ لَا يُجْدِى عَنْهُمْ حَذَرُهُمْ شَيْئًا

(وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ)لِأَنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِهِمْ بِقُدْرَتِهِ وَ هُمْ تَحْتَ مَشِيئَتِهِ وَ إِرَادَتِهِ 19

(يَكَادُ ٱلْبَرْقُ)لِشِدَّتِهِ وَ قُوَّتِهِ فِي نَفْسِهِ وَ ضَعْفِ بَصَائِرِهِمْ وَ عَدَمِ ثَبَاتِهَا لِلْإِيمَانِ(يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْۖ)يَأْخُذهَا بِسُرْعَةٍ

(كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم)البرق في تلك الظلمات

كُلَّمَا أَصَابَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ عِزِّ الْإِسْلَامِ اطْمَأَنُّوا إِلَيْهِ وَ إِنْ أَصَابَ الْإِسْلَامَ نَكْبَةٌ قَامُوا لِيَرْجِعُوا إِلَى الْكُفْرِ كَقَوْلِهِ:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ }[الْحَجِّ: 11]

(مَّشَوْاْ)وقفوا(ثبتوا ليس معناها أنهم كانوا قعودا فوقفوا) (فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ)

فهكذا حال المنافقين إذا سمعوا القرآن و أوامره و نواهيه و وعده و وعيده جعلوا أصابعهم في آذانهم

–و أعرضوا عن أمره و نهيه و وعده و وعيده

–فيروعهم وعيده

–و تزعجهم وعوده فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم و يكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد

–و يجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت فهذا تمكن له السلامة.

–و أما المنافقون فأنى لهم السلامة و هو تعالى محيط بهم قدرة و علما فلا يفوتونه و لا يعجزونه بل يحفظ

عليهم أعمالهم و يجازيهم عليها أتم الجزاء. و لما كانوا مبتلين بالصمم و البكم و العمى المعنوى

و مسدودة عليهم طرق الإيمان قال تعالى:-(وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ)

أي: الحسية ففيه تحذير لهم و تخويف بالعقوبة الدنيوية ليحذروا فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم

(إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ)فلا يعجزه شيءو من قدرته أنه إذا شاء شيئا فعله من غير ممانع و لا معارض.

و في هذه الآية و ما أشبهها رد على:-القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى

*فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا صَارَ النَّاسُ أَقْسَامًا:

1- مُؤْمِنُونَ خُلّص وَهُمُ الْمَوْصُوفُونَ بِالْآيَاتِ الْأَرْبَعِ فِي أَوَّلِ الْبَقَرَةِ

2- وَ كُفَّارٌ خُلَّصٌ وَ هُمُ الْمَوْصُوفُونَ بِالْآيَتَيْنِ بَعْدَهَا

3- وَ مُنَافِقُونَ وَ هُمْ قِسْمَانِ:-

1-خُلَّصٌ وَ هُمُ الْمَضْرُوبُ لَهُمُ الْمَثَلُ النَّارِيُّ

2-وَ مُنَافِقُونَ يَتَرَدَّدُونَ تَارَةً يَظْهَرُ لَهُمْ لُمَعٌ مِنَ الْإِيمَانِ وَتَارَةً يَخْبُو وَهُمْ أَصْحَابُ الْمَثَلِ الْمَائِيِّ وَهُمْ أَخَفُّ حَالًا مِنَ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ.

الاعجازالعلمي في الآية الرابط

وجد العلماء أن الغلاف الجوي يحوي غيوماً ركامية عالية يبلغ ارتفاعها أكثر من 10 كيلو متر وهذه الغيوم يكون مركزها مظلماً ولو كنا في وضح النهار!! وفي مركزها هناك ومضات برق تحدث داخل هذه الغيوم (في مناطق اختلاف الشحنات الكهربائية) وهذا البرق الذي لا نراه على الأرض يولد الرعد أيضاً ولذلك وصف القرآن بدقة مذهلة ما يحدث داخل الغيمة:

ظلمات و برق و رعد والعلماء لم يكتشفوا ذلك إلا في أواخر القرن العشرين فسبحان الله! 20

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ)هذا أمر عام لكل الناس بأمر عام و هــــــو:- العبودية و أهميتها21-29

العبادة الجامعة لامتثال أوامر الله و اجتناب نواهيه و تصديق خبره فأمرهم تعالى بما خلقهم له قال تعالى:

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56]

ثم استدل على وجوب عبادته وحده(ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ)بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم فخلقكم بعد العدم

(وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ)وخلق الذين من قبلكم و أنعم عليكم بالنعم الظاهرة و الباطنة

(لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ)

تتخذون وقاية تحفظكم من عذاب الله و ذلك بالإيمان و العمل الصالح بعد ترك الشرك و المعاصي.

يحتمل أن المعنى:-

1- أنكم إذا عبدتم الله وحده اتقيتم بذلك سخطه وعذابه لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك

2-و يحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى

و كلا المعنيين صحيح و هما متلازمان

فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين ومن كان من المتقين حصلت له النجاة من عذاب الله و سخطه 21

(ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا)

فجعل لكم الأرض فراشا تستقرون عليها و تنتفعون بالأبنية و الزراعة و الحراثة و السلوك من محل إلى محل و غير ذلك من أنواع الانتفاع بها

(وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ)

لمسكنكم و أودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم و حاجاتكم كالشمس و القمر و النجوم.

تبين لهم أن هذا الفضاء ليس فضاءً بكل معنى الكلمة اكتشفوا وجود مادة مظلمة تملأ الكون حتى إن بعض الحسابات تخبرنا بأن نسبة المادة المظلمة والطاقة المظلمة وهي مادة غير مرئية لا نراها ولا نعرف عنها شيئاً تشغل من الكون أكثر من 96 % والمادة المرئية والطاقة المرئية أيضاً الطاقة العادية يعني لا تشغل إلا أقل من 4 % من حجم هذا الكون.

لقد بدأ العلماء يكتشفون بنية معقدة لهذا الكون فاكتشفوا بأن المجرات تتوضع على خيوط دقيقة وطويلة تشبه نسيج العنكبوت واكتشفوا أيضاً أن المادة المظلمة تنتشر في كل مكان وتسيطر على توزع المجرات في الكون.

وبعد ذلك أدركوا أنه لا يوجد أي فراغ في هذا الكون فأطلقوا كلمة Building أي [بناء] على هذا الكون

(وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ)هو كل ما علا فوقك فهو سماء –المراد بالسماء هاهنا: السحاب فأنزل منه تعالى (مَآءٗ)

(فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ)كالحبوب والثمار من نخيل و فواكه و زروع و غيرها

(رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ)به ترتزقون و تقوتون و تعيشون و تفكهون.

(فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا)نظراء و أشباها من المخلوقين فتعبدونهم كما تعبدون الله و تحبونهم كما تحبون الله

وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض ولا ينفعونكم ولا يضرون

*البخارى 4761 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ - أَوْ سُئِلَ - رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: -أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ قَالَ:
«أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»

*الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاة سَوْدَاءٍ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَهُوَ أَنْ يَقُولَ:
وَ اللَّهِ وَ حَيَاتِكَ يَا فُلَانُ وَ حَيَاتِي وَ يَقُولُ: لَوْلَا كَلْبَةُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ وَ لَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ
قَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ و شئتَ وَ قَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللَّهُ وَ فُلَانٌ. لَا تَجْعَلُ فِيهَا "فُلَانَ" هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ.

(وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)أن الله ليس له شريك و لا نظير لا في الخلق و الرزق و التدبير و لا في العبادة

فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب و أسفه السفه.

و هذه الآية جمعت بين :-1-الأمر بعبادة الله وحده و النهى عن عبادة ما سواه

2-و بيان الدليل الباهر على وجوب عبادته و بطلان عبادة من سواه

و هو ذكر توحيد الربوبية المتضمن لانفراده بالخلق و الرزق و التدبير

فإذا كان كل أحد مقرا بأنه ليس له شريك في ذلك فكذلك فليكن إقراره بأن الله لا شريك له في العبادة

و هذا أوضح دليل عقلي على وحدانية البارى و بطلان الشرك 22

*ثم ذكر دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ و صحة ما جاء به:-

(وَإِن كُنتُمۡ)يا معشر المعاندين للرسول الرادين دعوته الزاعمين كذبه

(فِي رَيۡبٖ)في شك و اشتباه

1- دليل على أن الذي يرجى له الهداية من الضلالة: -

هو الشاك الحائر الذي لم يعرف الحق من الضلال

فهذا إذا بين له الحق فهو حري بالتوفيق إن كان صادقا في طلب الحق.

2-و أما المعاند الذي يعرف الحق ويتركه فهذا لا يمكن رجوعه

لأنه ترك الحق بعد ما تبين له لم يتركه عن جهل فلا حيلة فيه.

3-و كذلك الشاك غير الصادق في طلب الحق

بل هو معرض غير مجتهد في طلبه فهذا في الغالب أنه لا يوفق.

(مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا)هل هو حق أو غيره ؟

فهاهنا أمر نصف فيه الفيصلة بينكم وبينه و هو أنه بشر مثلكم ليس بأفصحكم و لا بأعلمكم

و أنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ فأتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله وقلتم أنتم أنه تقوَّله وافتراه

فإن كان الأمر كما تقولون (فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ)و استعينوا بمن تقدرون عليه من

(شُهَدَآءَكُم)أعوانكم و شهدائكم

(مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)فإن هذا أمر يسير عليكم خصوصا و أنتم أهل الفصاحة و الخطابة

و العداوة العظيمة للرسول فإن جئتم بسورة من مثله فهو كما زعمتم 23

(فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ)و إن لم تأتوا بسورة من مثله و عجزتم غاية العجز

(وَلَن تَفۡعَلُواْ)وَ لَنْ:-لِنَفيِ التَّأْبِيدِ أَيْ: وَ لَنْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ أَبَدًا

و لكن هذا التقييم على وجه الإنصاف والتنزل معكم فهذا آية كبرى و دليل واضح جلي على صدقه وصدق ما جاء به فيتعين عليكم اتباعه

(فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ)و اتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة و الشدة

وَ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [الْأَنْبِيَاءِ: 98] .

(ٱلَّتِي وَقُودُهَا)فَهُوَ مَا يُلْقَى فِي النَّارِ لِإِضْرَامِهَا كَالْحَطَبِ وَ نَحْوِهِ

(ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ)

حِجَارَةُ الْكِبْرِيتِ الْعَظِيمَةُ السَّوْدَاءُ الصَّلْبَةُ الْمُنْتِنَةُ وَ هِىَ أَشَدُّ الْأَحْجَارِ حَرًّا إِذَا حَمِيَتْ أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا.

حِجَارَةُ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

كقوله:{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [الْأَنْبِيَاءِ: 98]

(أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)و هذه النار الموصوفة معدة و مهيأة للكافرين بالله و رسله.

1- دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان خلافا للمعتزلة

2-و فيها أيضا أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار لأنه قال: (أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها لم تكن معدة للكافرين وحدهم خلافا للخوارج والمعتزلة.

3-و فيها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه و هو الكفر و أنواع المعاصي على اختلافها24

. . . .

....

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ
كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ
وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥ ۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا
بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ
وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ
أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ
وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم
مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩

لما ذكر جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أهل الأعمال الصالحات على طريقته تعالى في القرآن يجمع بين الترغيب و الترهيب ليكون العبد راغبا راهبا خائفا راجيا فقال:

(وَبَشِّرِ)أي: يا أيها الرسول و من قام مقامه (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)بقلوبهم (وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)بجوارحهم فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. و وصفت أعمال الخير بالصالحات:-

1-لأن بها تصلح أحوال العبدو أمور دينه ودنياهو حياته الدنيوية و الأخروية 2-و يزول بها عنه فساد الأحوال فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

فبشرهم(أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ)بساتين جامعة من الأشجار العجيبة و الثمار الأنيقة و الظل المديد و الأغصان و الأفنان و بذلك صارت جنة يجتن بها داخلها وينعم فيها ساكنها.

(تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ)أنهار الماء و اللبن و العسل و الخمر يفجرونها كيف شاءوا و يصرفونها أين أرادوا و تشرب منها تلك الأشجار فتنبت أصناف الثمار.

(كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ)هذا من جنسه و على وصفه كلها متشابهة في الحسن و اللذة ليس فيها ثمرة خاصة و ليس لهم وقت خال من اللذة فهم دائما متلذذون بأكلها.

(وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ)يشبه بعضه بعضا في الحسن و اللذة و الفكاهة
وَ يطُوفُ عَلَيْهِمُ الوِلْدَانُ بِالْفَوَاكِهِ فَيَأْكُلُونَهَا ثُمَّ يُؤْتَوْنَ بِمِثْلِهَا فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ:-

هَذَا الَّذِي أَتَيْتُمُونَا آنِفًا بِهِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْوِلْدَانُ: كُلُوا فَإِنَّ اللَّوْنَ وَاحِدٌ وَالطَّعْمُ مُخْتَلِفٌ

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾فلم يقل « مطهرة من العيب الفلاني » ليشمل جميع أنواع التطهير

–فهن مطهرات الأخلاق –مطهرات الخلق–مطهرات اللسان–مطهرات الأبصار–فأخلاقهن أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن:–بالخلق الحسن و حسن التبعل و الأدب القولي و الفعلي–

و مطهر خَلْقهن من الحيض و النفاس و المني و البول و الغائط و المخاط و البصاق و الرائحة الكريهة

–ومطهرات الخلق أيضا بكمال الجمال فليس فيهن عيب ولا دمامة خلق بل هن خيرات حسان مطهرات اللسان و الطرف قاصرات طرفهن على أزواجهن و قاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح.

ففي هذه الآية الكريمة

1– ذكر المبشِّر والمبشَّر و المبشَّر به و السبب الموصل لهذه البشارة

فالمبشِّر:هو الرسول ﷺومن قام مقامه من أمته و المبشَّر: هم المؤمنون العاملون الصالحات

و المبشَّر به:هى الجنات الموصوفات بتلك الصفات و السبب الموصل لذلك هو :–الإيمان و العمل الصالح

فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما و هذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق بأفضل الأسباب

2–و فيه استحباب بشارة المؤمنين و تنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها و ثمراتها

فإنها بذلك تخف و تسهل و أعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان و العمل الصالح فذلك أول البشارة و أصلها و من بعده البشرى عند الموت

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾في مقام أمين من الموت و الانقطاع فلا آخر له 25

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾لا يمنعه الحياء من ضرب الأمثال

﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾و إن صغرت كالبعوضة أو أصغر منها كجناحها.

وَ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ:-
هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ للدنيا إِذ الْبَعُوضَةُ تَحْيَا مَا جَاعَتْ فَإِذَا سَمِنَتْ مَاتَتْ.
وَ كَذَلِكَ مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ضُرِبَ لَهُمْ هَذَا الْمَثَلَ فِي الْقُرْآنِ إِذَا امْتَلَؤُوا مِنَ الدُّنْيَا رِيًّا أَخَذَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ ثُمَّ تَلَا {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [الْأَنْعَامِ: 44] .

–لاشتمال الأمثال على الحكمة وإيضاح الحق والله لا يستحيي من الحق –

و كأن في هذا جوابا لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة و اعترض على الله في ذلك فليس في ذلك محل اعتراض بل هو من تعليم الله لعباده و رحمته بهم فيجب أن تتلقى بالقبول و الشكر.

و لكن المقصود من قوله تعالى (فَمَا فَوْقَهَا)
فِيهِ قَوْلَانِ:أَحَدُهُمَا: فَمَا دُونَهَا فِي الصِّغَرِ وَالْحَقَارَةِ كَمَا إِذَا وُصِفَ رَجُلٌ بِاللُّؤْمِ وَالشُّحِّ فَيَقُولُ السَّامِعُ:-

نَعَمْ وَ هُوَ فَوْقَ ذَلِكَ يَعْنِي فِيمَا وَصَفْتَ
وَ الثَّانِي: فَمَا فَوْقَهَا: فَمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَحْقَرُ وَلَا أَصْغَرُ مِنَ الْبَعُوضَةِ.
وَ يُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:
*مسلم-2572«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَ مُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»
فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَصْغِرُ شَيْئًا يَضْرِب بِهِ مَثَلًا وَ لَوْ كَانَ فِي الْحَقَارَةِ وَ الصِّغَرِ كَالْبَعُوضَةِ
كَمَا لَمْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ خَلْقِهَا كَذَلِكَ لَا يَسْتَنْكِفُ مِنْ ضَرْبِ الْمَثَلِ بِالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ
قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا سَمِعْتُ الْمَثَلَ فِي الْقُرْآنِ فَلَمْ أَفْهَمْهُ بَكَيْتُ عَلَى نَفْسِي لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ:
{وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ}
و قد كشف العلم عما يماثلها أو يزيد عنها خطورة ويفوقها ضآلة من الكائنات الدقيقة مثل الطفيليات و الفطريات و البكتريات و الفيروسات
*وهذه الكائنات الدقيقة لم يكن بمقدور الإنسان التعرف عليها قبل اختراع المجهر البدائي عام 1674م على يد العالم فان ليفينهوك.
*لقد استهان الناس عبر الأجيال بالبعوضة لضآلتها وصغر حجمها فاستنكر عليهم القرآن استهانتهم بها في تعبير معجز بليغ يشي بخطورتها واتخذها مثلا يتحدى به قبل أن يعرف دورها في نقل الأمراض بل وقبل اكتشاف الكائنات الأخرى التي تشاركها الخطورة بما تسبب من أمراض تحداهم القرآن بما يفوقها ضآلة مثالا على عناية الله وقدرته وعلمه بأسرار كل المخلوقات .
*وطبقا لتصريحات منظمة الصحة العالمية ما زالت الملاريا تصيب حوالي 400 مليون ضحية سنويا على مستوى الكوكب و تقتل حوالي 2 مليون شخص معظمهم من الأطفال ولا يوجد لقاح فعال ضدها حتى الآن

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ)

فيتفهمونها و يتفكرون فيها فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل ازداد بذلك علمهم و إيمانهم
و إلا علموا أنها حق وما اشتملت عليه حق و إن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثا بل لحكمة بالغة ونعمة سابغة.

(وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ)

فيعترضون ويتحيرون فيزدادون كفرا إلى كفرهم كما ازداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ولهذا قال:

(يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ)

فهذه حال المؤمنين وا لكافرين عند نزول الآيات القرآنية. قال تعالى:

{ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ124
وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: 124 125]

فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية
–و مع هذا تكون لقوم محنة و حيرة و ضلالة و زيادة شر إلى شرهم
–و لقوم منحة و رحمة و زيادة خير إلى خيرهم

فسبحان من فاوت بين عباده وانفرد بالهداية والإضلال

*ثم ذكر حكمته في إضلال من يضلهم و أن ذلك عدل منه تعالى فقال:(وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ)

أى: الخارجين عن طاعة الله المعاندين لرسل الله الذين صار الفسق وصفهم فلا يبغون به بدلا

فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى كما اقتضت حكمته و فضله هداية من اتصف بالإيمان و تحلى بالأعمال الصالحة.

و الفســـــق نوعان:

1-نوع مخرج من الدين و هو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان كالمذكور في هذه الآية ونحوها

2-و نوع غير مخرج من الإيمان كما في قوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ} [الحجرات: 6]

وَ الْفَاسِقُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الْخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ أَيْضًا. وَ تَقُولُ الْعَرَبُ: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ: إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا وَ لِهَذَا يُقَالُ لِلْفَأْرَةِ: فُوَيْسِقَةٌ لِخُرُوجِهَا عَنْ جُحْرِها لِلْفَسَادِ.

فَالْفَاسِقُ يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَ الْعَاصِيَ وَ لَكِنَّ فسْق الْكَافِرِ أَشَدُّ وَ أَفْحَشُ وَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ:- الْفَاسِقُ الْكَافِرُ 26

*ثم وصف الفاسقين فقال:(ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ)

ما عهد به إلى الناس من الإيمان و الطاعة له و لرسوله ﷺ و هـــــذا يعـــــم :-

1-العهد الذي بينهم و بينه

2-و الذي بينهم و بين عباده الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة و الإلزامات فلا يبالون بتلك المواثيق بل ينقضونها و يتركون أوامره و يرتكبون نواهيه و ينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق.

(وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ)وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة:-

1- فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته

2-و ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبته وتعزيره والقيام بحقوقه

3-و ما بيننا وبين الوالدين و الأقارب و الأصحاب و سائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق التي أمر الله أن نصلها.

فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق و قاموا بها أتم القيام

(وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ)و أما الفاسقون فقطعوها و نبذوها وراء ظهورهم معتاضين عنها بالفسق و القطيعة

العمل بالمعاصي و هــــو: الإفساد في الأرض فـــــــ(أُوْلَٰٓئِكَ)من هذه صفته(هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ)

جَمْعُ خَاسِرٍ وَ هُمُ النَّاقِصُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ حُظُوظَهُمْ بِمَعْصِيَتِهِمُ اللَّهَ مِنْ رَحْمَتِهِ

كَمَا يَخْسَرُ الرَّجُلُ فِي تِجَارَتِهِ بِأَنْ يُوضَعَ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ فِي بَيْعِهِ

وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ خَسِرَ بِحِرْمَانِ اللَّهِ إِيَّاهُ رَحْمَتَهُ الَّتِي خَلَقَهَا لِعِبَادِهِ فِي الْقِيَامَةِ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا

1-و هذا الخسار هو خسار الكفر 2-و أما الخسار الذي قـــــــد يكـــــــون:-
كفرا-و قد يكون معصية-و قد يكون تفريطا في ترك مستحب المذكور في قوله{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}[العصر: 2]
فهذا عام لكل مخلوق إلا من اتصف بالإيمان و العمل الصالح و التواصى بالحق و التواصى بالصبر
و حقيقة فوات الخير الذي كان العبد بصدد تحصيله و هو تحت إمكانه.

كَقَوْلِهِ{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} [مُحَمَّدٍ: 22]27

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ)هذا استفهام بمعنى التعجب و التوبيخ و الإنكار
كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي خلقكم من العدم و أنعم عليكم بأصناف النعم

(ثُمَّ يُمِيتُكُمْ)عند استكمال آجالكم و يجازيكم في القبور (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ)بعد البعث و النشور

(ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)فيجازيكم الجزاء الأوفى فإذا كنتم في تصرفه و تدبيره و بره و تحت أوامره الدينية
و من بعد ذلك تحت دينه الجزائي أفيليق بكم أن تكفروا به وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماقة ؟
بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به و تتقوه و تشكروه و تخافوا عذابه و ترجوا ثوابه 28

(هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم) خلق لكم برا بكم و رحمة جميع (مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا)
1-للانتفاع2-و الاستمتاع3- و الاعتبار. و فى هذه الآية العظيمة دليل على :-
أن الأصل في الأشياء الإباحة و الطهارة -لأنها سيقت في معرض الامتنان يخرج بذلك الخبائث
-فإن تحريمها أيضا يؤخذ من فحوى الآية و معرفة المقصود منها و أنه خلقها لنفعنا فما فيه ضرر فهو خارج
من ذلك و من تمام نعمته منعنا من الخبائث تنزيها لنا.

(ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ) ترد (ٱسْتَوَىٰ) فى القرآن على ثلاثة معانى:-
1-فتارة لا تعدى بالحرف فيكون معناها الكمال والتمام كما في قوله عن موسى:
{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} [القصص: 14]
2-و تارة تكون بمعنى « علا » و « ارتفع » و ذلك إذا عديت بـ « على » كما في قوله تعالى:
{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: 54]{ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} [الزخرف: 13]
3-و تارة تكون بمعنى « قصد » كما إذا عديت بـ « إلى » كما في هذه الآية أى:-
لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السماوات

(فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ)فخلقها و أحكمها و أتقنها(وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)
و كثيرا ما يقرن بين خلقه للخلق و إثبات علمه كما في هذه الآية
كقوله:{ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}29

وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا
وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠
وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١
قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ
فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ
وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ
وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا
وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ
وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦
فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧

قصة بداية العبودية30-39

(وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ)
قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ و جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ
كقوله{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ}[الأنعام: 165]وَ لَيْسَ الْمُرَادُ هَاهُنَا بِالْخَلِيفَةِ آدَمَ عليه السلام فَقَطْ
*وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ آدَمَ عَيْنًا إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا حَسُنَ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ:
{أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا أَرَادُوا أَنَّ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ

(قَالُوٓاْ)فقالت الملائكة عليهم السلام:-(أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا) بالمعاصي

(وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ)قياساً على خلق من الجن–و هذا تخصيص بعد تعميم لبيان شدة مفسدة القتل

و هذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعول في الأرض سيحدث منه ذلك فنزهوا البارى عن ذلك و عظموه

و أخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة فقالوا:

(وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ)ننزهك التنزيه اللائق بحمدك و جلالك

(وَنُقَدِّسُ لَكَۖ)يحتمل:-

1–و نقدسك فتكون اللام مفيدة للتخصيص و الإخلاص

2-نقدس لك أنفسنا أى: نطهرها بالأخلاق الجميلة كمحبة الله وخشيته و تعظيمه
و نطهرها من الأخلاق الرذيلة.

*مسلم (2731) عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺسُئِلَ أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:-
"مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ"

(قَالَ) الله تعالى للملائكة:(إِنِّيٓ أَعۡلَمُ)من هذا الخليفة

(مَا لَا تَعۡلَمُونَ)لأن كلامكم بحسب ما ظننتم و أنا عالم بالظواهر و السرائر

1–و أعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر

2–فلو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء و الصديقين و الشهداء و الصالحين

3–و لتظهر آياته للخلق و يحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة كالجهاد وغيره

4–و ليظهر ما كمن في غرائز بني آدم من الخير والشر بالامتحان و ليتبين عدوه من وليه و حزبه من حربه

5–و ليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه و اتصف به 30

–ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض
أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله و كمال حكمة الله و علمه

(وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا)

أسماء الأشياء و ما هو مسمى بها فعلمه الاسم و المسمى

أى:الألفاظ و المعاني حتى المكبر من الأسماء كالقصعة و المصغر كالقصيعة.

(ثُمَّ عَرَضَهُمۡ)أى:عرض المسميات(عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ)امتحانا لهم هل يعرفونها أم لا ؟

(فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)في قولكم وظنكم أنكم أفضل من هذا الخليفة 31

(قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ)أى: ننزهك من الاعتراض منا عليك و مخالفة أمرك.

(لَا عِلۡمَ لَنَآ)بوجه من الوجوه (إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ)إياه فضلا منك وجودا

(إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ)

الذي أحاط علما بكل شيء فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات و الأرض

(ٱلۡحَكِيمُ)

من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق و لا يشذ عنها مأمور

فما خلق شيئا إلا لحكمة و لا أمر بشيء إلا لحكمة و الحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به

فأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته وقصورهم عن معرفة أدنى شيء واعترافهم بفضل الله عليهم وتعليمه إياهم

ما لا يعلمون 32

فحينئذ قال الله: (قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ)

أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة فعجزوا عنها

(فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ)تبين للملائكة فضل آدم عليهم وحكمة الباري و علمه فى استخلاف هذا الخليفة

(قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)

و هو ما غاب عنا فلم نشاهده فإذا كان عالما بالغيب فالشهادة من باب أولى

(وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ)تظهرون -قولهم {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا} فَهَذَا الَّذِي أَبْدَوْا

(وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ)

الَّذِي كَانُوا يَكْتُمُونَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مُنْطَوِيًا إِبْلِيسُ مِنَ الْخِلَافِ عَلَى اللهِ فِي أوامره و التكبر عن طاعته 33

(وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ)ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم:-

1-إكراما له وتعظيما2-و عبودية لله تعالى فامتثلوا أمر الله و بادروا كلهم بالسجود

(إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ)امتنع عن السجود(وَٱسۡتَكۡبَرَ)

*مسلم91 عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»

*** حَسَدَ عَدُوُّ اللَّهِ إبليسُ آدمَ ﷺ عَلَى مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْكَرَامَةِوَ قَالَ:أَنَا نارِىٌّ وَ هَذَا طِينيٌّ

وَكَانَ بَدْءُ الذُّنُوبِ (((الْكِبْرَ))) اسْتَكْبَرَ عدوُّ اللَّهِ أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَﷺ.

(وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ)أي العاصين-صار من الكافرين بسبب امتناعه–قال:{ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}[الإسراء: 61]

و هذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطو عليه فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم وكفره واستكباره.

*و فى هذه الآيات من العبر والآيات

1- إثبات الكلام لله تعالى وأنه لم يزل متكلما يقول ما شاء ويتكلم بما شاء 2-وأنه عليم حكيم

3- وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فالوجب عليه التسليم واتهام عقله والإقرار لله بالحكمة

4-وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة وإحسانه بهم بتعليمهم ما جهلوا وتنبيههم على ما لم يعلموه.

5-و فيه فضيلة العلم من وجوه: -

منها:أن الله تعرف لملائكته بعلمه وحكمته

و منها:أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم وأنه أفضل صفة تكون في العبد

و منها:أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراما له لما بان فضل علمه

و منها:أن الامتحان للغير إذا عجزوا عما امتحنوا به

ثم عرفه صاحب الفضيلة فهو أكمل مما عرفه ابتداء

ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن وبيان فضل آدم

و أفضال الله عليه و عداوة إبليس له إلى غير ذلك من العبر 34

(وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ)

ما خلق الله آدم وفضله أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة ليسكن إليها و يستأنس بها و أمرهما بسكنى الجنة

(وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا)و الأكل منها رغدا أي: واسعا هنيئا

(حَيْثُ شِئْتُمَا)من أصناف الثمار و الفواكه كقوله{إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى118 وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} طه

(وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ)

نوع من أنواع شجر الجنة الله أعلم بهاوإنما نهاهما عنها امتحانا و ابتلاء أو لحكمة غير معلومة لنا

(فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)دل على أن النهي للتحريم لأنه رتب عليه الظلم.

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما ويزين لهما تناول ما نهيا عنه 35

(فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ)

فأوقعهما الشيطان في الخطيئةحتى أزلهما حملهما على الزلل بتزيينه{وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}[الأعراف: 21]

فاغترا به و أطاعاه فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد

(وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟)إلى دار التعب والنصب والمجاهدة.

(بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)آدم و ذريته أعداء لإبليس و ذريته

ومن المعلوم أن العدو يجد ويجتهد في ضرر عدوه و إيصال الشر إليه بكل طريق و حرمانه الخير بكل طريق

ثم ذكر منتهى الإهباط إلى الأرض فقال:-(وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ)مسكن و قرار

(وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ)انقضاء آجالكم ثم تنتقلون منها للدار التي خلقتم لها و خلقت لكم

أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة ليست مسكنا حقيقيا و إنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار ولا تعمر

للاستقرار 36

(فَتَلَقَّىٰٓ)تلقف و تلقن(ءَادَمُ)و ألهمه الله(مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ)

{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: 23]

فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته (فَتَابَ) الله (عَلَيۡهِۚ)و رحمه(إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ)لمن تاب إليه وأناب.

و توبتـــــه نوعـــــان: 1-توفيقه أولا ثم2- قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانيا.

(ٱلرَّحِيمُ)بعباده ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة و عفا عنهم و صفح.

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: 104] 37

قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ
ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ
وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ
وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣
۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤
وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ
وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧
وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨

(قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ)كرر الإهباط ليرتب عليه ما ذكر و هو قوله:

(فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي) أيَّ وقت و زمان جاءكم مني – يا معشر الثقلين–

(هُدٗى)أي:رسول و كتاب يهديكم لما يقربكم مني و يدنيكم مري و يدنيكم من رضائي

(فَمَن تَبِعَ هُدَايَ)منكم بأن آمن برسلي و كتبي و اهتدى بهم

(فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ) يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ(وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ) عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا

كقوله{فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } [طه: 123] فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء:

1+2:–نفي الخوف و الحزن :–

و الفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن و إن كان منتظرا أحدث الخوف

فنفاهما عمن اتبع هداه و إذا انتفيا حصل ضدهما و هو الأمن التام

3+4:–و كذلك نفي الضلال و الشقاء عمن اتبع هداه :–

و إذا انتفيا ثبت ضدهما و هو الهدى و السعادة فمن اتبع هداه حصل له الأمن و السعادة الدنيوية و الأخروية

و الهدى و انتفى عنه كل مكروه من((الخوف و الحزن و الضلال و الشقاء))38

(وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ)و هذا عكس من لم يتبع هداه فكفر به و كذَّب بآياته.

فـــــــ(أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ)الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه والغريم لغريمه

(هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ)لا يخرجون منها و لا يفتر عنهم العذاب و لا هم ينصرون.

و فى هذه الآيات و ما أشبهها انقسام الخلق من الجن و الإنس إلى:- 1-أهل السعادة 2- و أهل الشقاوة

و فيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك و أن الجن كالإنس فى الثواب و العقاب كما أنهم مثلهم فى الأمر و النهى39

الاستجابة فى حقيقة العبودية (مثال سلبى)نقض بنى اسرائيل العهد 40-103

-ثم شرع تعالى يذكِّر بني إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه فقال: (يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ)

إسرائيل:يعقوب عليه السلاموالخطاب مع فرق بنى إسرائيل الذين بالمدينة وما حولها ويدخل فيهم من أتى من بعدهم

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ومُهَيجًا لَهُمْ بِذِكْرِ أَبِيهِمْ إِسْرَائِيلَ وَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ يَعْقُوبُعليه السلاموَتَقْدِيرُهُ: يَا بَنِي الْعَبْدِ الصَّالِحِ الْمُطِيعِ لِلَّهِ كُونُوا مِثْلَ أَبِيكُمْ فِي مُتَابَعَةِ الْحَقِّ

فأمرهم بأمر عام فقال: (ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ)

و هو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها و المراد بذكرها بـــــــــــ:-

القلب اعترافــــــا و باللسان ثنــــــاء و بالجوارح باستعمالهـــــا فيما يحبه و يرضيه.

*فَجَّرَ لَهُمُ الْحَجَرَ وَ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى وَ أَنْجَاهُمْ من عبودية آل فرعون.

نِعْمَتُهُ أَنْ جَعَلَ مِنْهُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ وَ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ.

قُلْتُ: وَهَذَا كَقَوْلِ مُوسَى عليه السلاملَهُمْ:{يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} [الْمَائِدَةِ: 20] يَعْنِي فِي زَمَانِهِمْ.

(وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ)و هو ما عهده إليهم من الإيمان به و برسله و إقامة شرعه.

(أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ)و هو المجازاة على ذلك. و المراد بذلك:ما ذكره الله في قوله:-

{ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [المائدة: 12]

(وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ)ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده (((و هو الرهبة منه تعالى و خشيته وحده)))

-فإن مَنْ خشِيَه أوجبت له خشيته امتثال أمره و اجتناب نهيه 40

ثم أمرهم بالأمر الخاص الذي لا يتم إيمانهم و لا يصح إلا به فقال:(وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ)

و هو القرآن الذي أنزله على عبده و رسوله محمد ﷺ فأمرهم بالإيمان به و اتباعه

و يستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه و ذكر الداعى لإيمانهم به فقال:(مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ)

أى: موافقا له لا مخالفا و لا مناقضا فإذا كان موافقا لما معكم من الكتب غير مخالف لها

فلا مانع لكم من الإيمان به لأنه جاء بما جاءت به المرسلون فأنتم أولى من آمن به وصدق به لكونكم أهل الكتب والعلم. و أيضا فإن في قوله: (مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ)

-إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى و غيرهما من الأنبياء فتكذيبكم له تكذيب لما معكم. و أيضا فإن في الكتب التي بأيدكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن و البشارة به فإن لم تؤمنوا به كذبتم ببعض ما أنزل إليكم

و من كذب ببعض ما أنزل إليه فقد كذب بجميعه- كما أن من كفر برسول فقد كذب الرسل جميعهم.

فلما أمرهم بالإيمان به نهاهم و حذرهم من ضده و هو الكفر به فقال:-(وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ)

أي: بالرسول و القرآن. و في قوله: (أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) أبلغ من قوله:(ولا تكفروا به)

لأنهم إذا كانوا أول كافر به كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به عكس ما ينبغي منهم و صار عليهم إثمهم و إثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية فقال(وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا)

و هو ما يحصل لهم من المناصب و المآكل التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله فاشتروها بآيات الله و استحبوها و آثروها.

(وَإِيَّٰيَ)لا غيرى(فَٱتَّقُونِ)فإنكم إذا اتقيتم الله وحده أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل

-كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم 41

ثم قال:(وَلَا تَلۡبِسُواْ)أى: تخلطوا(ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ)

فنهاهم عن شيئين:-1- عن خلط الحق بالباطل 2- و كتمان الحق

لأن المقصود من أهل الكتب والعلم:-

1-تمييز الحق 2-و إظهار الحق

1-ليهتدى بذلك المهتدون2- و يرجع الضالون 3-و تقوم الحجة على المعاندين

*لأن الله فصل آياته و أوضح بيناته:-

1- ليميز الحق من الباطل 2-و لتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين

-فمن عمل بهذا من أهل العلم فهو من خلفاء الرسل و هداة الأمم.

-و من لبَّس الحق بالباطل فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك+ و كتم الحق الذي يعلمه و أمر بإظهاره (((فهو من دعاة جهنم)))لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين.

(وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)الْحَقَّ -ما فِي ذَلِكَ مِنَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ عَلَى النَّاسِ مِنْ إِضْلَالِهِمْ عَنِ الْهُدَى الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى النَّارِ إِلَى أَنْ سَلَكُوا مَا تُبْدُونَهُ لَهُمْ مِنَ الْبَاطِلِ الْمَشُوبِ بِنَوْعٍ مِنَ الْحَقِّ لِتُرَوِّجُوهُ عَلَيْهِمْ

–ثم قال:(وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ)أي:ظاهرا و باطنا(وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ)مستحقيها(وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ)
صلوا مع المصلين ففيه الأمر بالجماعة للصلاة و وجوبها و فيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبّر عن الصلاة بالركوع– و التعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها

*فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسل الله وآيات الله فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة و بين الإخلاص للمعبود و الإحسان إلى عبيده و بين العبادات القلبية البدنية و المالية43

(أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ)بالإيمان و الخير

*البخارى3267 - عَنْ أَبِي وَائِلٍ ﷺقَالَ قِيلَ لِأُسَامَةَ لَوْ أَتَيْتَ فُلاَنًا (=عثمان ابن عفان ﷺ)فَكَلَّمْتَهُ قَالَ: إِنَّكُمْ لَتُرَوْنَ أَنِّي لاَ أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ إِنِّي أُكَلِّمُهُ فِي السِّرِّ (=إطفاء الفتنة التي تقع بين الناس) دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا لاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ وَلاَ أَقُولُ لِرَجُلٍ أَنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺقَالُوا: -وَ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ: قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ:" يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ؟أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ

(وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ)أي: تتركونها عن أمرها بذلك و الحال:(وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ)
*و أنتم تقرءون التوراة التي فيها صفات محمد ﷺ و وجوب الإيمان به!!
أفلا تستعملون عقولكم استعمالا صحيحًا؟
–و أُسْمى العقل عقلا لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير و ينعقل به عما يضره
و ذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به وأول تارك لما ينهى عنه
فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله أو نهاه عن الشر فلم يتركه دل على عدم عقله وجهله خصوصا إذا كان عالما بذلك قد قامت عليه الحجة. وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل فهي عامة لكل أحد لقوله
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ 2 كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف]
–و ليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به :أنه يترك الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين
وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين:
1–أمر غيره و نهيه 2–و أمر نفسه و نهيها فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر
– فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين –والنقص الكامل أن يتركهما و أما قيامه بأحدهما دون الآخر فليس في رتبة الأول وهو دون الأخير و أيضا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة44

(وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ)فَإِنَّ الصَّلَاةَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الْأَمْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}[الْعَنْكَبُوتِ45]

*أحمد 1023 -عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرُ الْمِقْدَادِ

«وَ لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إلا نَائِمٌ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺتَحْتَ شَجَرَةٍ يُصَلِّي وَ يَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ»

*قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ نُعِيَ إِلَيْهِ أَخُوهُ (قُثَم) وَ هُوَ فِي سَفَرٍ فَاسْتَرْجَعَ ثُمَّ تنحَّى عَنِ الطَّرِيقِ فَأَنَاخَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ أَطَالَ فِيهِمَا الْجُلُوسَ ثُمَّ قَامَ يَمْشِي إِلَى رَاحِلَتِهِ وَ هُوَ يَقُولُ:-

{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ}الطبري (852)

أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه:-

1- و هو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها2- و الصبر عن معصية الله حتى يتركها

3-و الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها

فبالصبر و حبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور ومن يتصبر يصبره الله

و الصلاة التي هى:-1- ميزان الإيمان2-و تنهى عن الفحشاء و المنكر3-يستعان بها على كل أمر من الأمور

(وَإِنَّهَا)أى:الصلاة (لَكَبِيرَةٌ)أي: شاقة (إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ) فإنها سهلة عليهم خفيفة

لأن الخشوع و خشية الله و رجاء ما عنده:-يوجب له فعلها منشرحا صدره(لترقبه للثواب و خشيته من العقاب)

بخلاف من لم يكن كذلك فإنه لا داعي له يدعوه إليها و إذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

الخشوع:-

خضوع القلب و طمأنينته و سكونه لله تعالى و انكساره بين يديه ذلا+ و افتقارا+ و إيمانا به و بلقائه 45

و لهذا قال:(ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ)أى:يستيقنون

(و هذه من الاستعمالات العربية التى قل تناولها فى هذا العصر و ليس معناها هنا يشكون)

*كقوله{وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [الكهف: 53]

(أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ)فيجازيهم بأعمالهم (وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ)

فهـــــذا الــــــذى:-

1-خفـــــــف عليهم العبادات

2-و أوجــــــــب لهم التسلي في المصيبات

3-و نفَّـــــــسَ عنهم الكربات

4-و زجـــــــرهم عن فعل السيئات

فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات

و أما من لم يؤمن بلقاء ربه كانت الصلاة و غيرها من العبادات من أشق شيء عليه.

*مسلم (2968) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟
قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟»
قَالُوا: لَا قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟»
قَالُوا: لَا قَالَ: " فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا
قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟
فَيَقُولُ: لَا فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي
ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ
فَيَقُولُ: بَلَى أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا فَيَقُولُ:-
فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي
ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ
وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا قَالَ:
ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ:
مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ
وَ يُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ
وَ ذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ وَ ذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَ ذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ46

(يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ)
يُذَكِّرُهُمْ تَعَالَى سَالفَ نِعَمِهِ عَلَى آبَائِهِمْ وَ أَسْلَافِهِمْ
وَ مَا كَانَ فَضَّلهم بِهِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ مِنْهُمْ وَ إِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ وَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ
كقوله{وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [الدُّخَانِ: 32]

ثم كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته وعظا لهم و تحذيرا و حثا(وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ)

بِمَا أُعطُوا مِنَ الْمُلْكِ وَ الرُّسُلِ وَ الْكُتُبِ عَلَى عَالَمِ مَنْ كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فَإِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ عَالَمًا.
*وَ يَجِبُ الْحَمْلُ عَلَى هَذَا لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى خِطَابًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ:
{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [آلِ عِمْرَانَ: 110]
*أحمد 20015-عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:
أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَ أَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»47

–و خوفهم بيوم القيامة الذي (وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي)فيه أى: لا تغني

(نَفۡسٌ)و لو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء و الصالحين(عَن نَّفۡسٖ)و لو كانت من العشيرة الأقربين

(شَيۡـٔٗا)لا كبيرا ولا صغيرا و إنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه كقوله{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الْأَنْعَامِ: 164]

*فَهَذِهِ أَبْلَغُ الْمَقَامَاتِ:-أَنَّ كُلًّا مِنَ الْوَالِدِ وَ وَلَدِهِ لَا يُغْنِي أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ شَيْئًا

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ)أى: النفس شفاعة لأحد:-

1- بدون إذن الله 2-و رضاه عن المشفوع له

3-و لا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه و كان على السبيل و السنة كقوله:-

{فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}[الْمُدَّثِّر:48]و عَنْ أَهْلِ النَّارِ:{فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ}[الشُّعَرَاء111]

(وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ)فداء{ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: 47]

(وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)أى:يدفع عنهم المكروه

فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه فقوله:(لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا)

هذا في تحصيل المنافع

(وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)هذا في دفع المضار فهذا النفي للأمر المستقل به النافع.

(ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل)

هذا نفي للنفع الذى يطلب ممن يملكه بعوض:كالعدل أو بغيره كالشفاعة

-فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين:لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع

-و أن يعلقه بالله الذي يجلب المنافع و يدفع المضار:فيعبده وحده لا شريك له و يستعينه على عبادته.

كما قَالَ:{فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ} [الطَّارِق: 10]

أَيْ:إِنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ فِيمَنْ كَفَرَ بِهِ فِدْيَةً وَ لَا شَفَاعَةً وَ لَا يُنْقِذُ أَحَدًا مِنْ عَذَابِهِ مُنْقِذٌ وَ لَا يُجِيرُهُ مِنْهُ أَحَدٌ

كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ}[الْمُؤْمِنُون: 88]

وَ قَالَ{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} [الْفَجْر: 25 26]

وَ قَالَ{مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} [الصَّافَّات: 25 26]

وَ قَالَ{فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ} [الْأَحْقَاف: 28] .

وَ ذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ{وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ* مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ* بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ}[الصافات: 24-26]48

وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ
وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ
وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾
ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ
﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ
فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾
وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾
ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ
وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾

هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل فقال:-

(وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ)أى:من فرعون وملئه و جنوده و كانوا قبل ذلك

(يَسُومُونَكُمۡ)يولونهم و يستعملونهم-يديمون عذابكم

(سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ)أشده بأن كانوا (يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ)خشية نموكم

(وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ)فلا يقتلونهن(يتركونهن على قيد الحياة و لا يقتلونهن لا من الحياء)

فأنتم بين قتيل و مذلل بالأعمال الشاقة مستحيي على وجه المنة عليه و الاستعلاء عليه

فهذا غاية الإهانة فمن الله عليهم بالنجاة التامة و إغراق عدوهم و هم ينظرون لتقر أعينهم.

(وَفِي ذَٰلِكُم)الإنجاء(بَلَآءٞ)إحسان(مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ)فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره 49

(وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ)حين فَصَلْنا بسببكم البحر و جعلنا فيه طرقًا يابسةً فعبرتم

{فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ }خَلَّصْنَاكُمْ مِنْهُمْ وَ حَجَزْنَا بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ

(وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ)لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشْفَى لِصُدُورِكُمْ وَ أَبْلَغَ فِي إِهَانَةِ عَدُوِّكُمْ

*مسلم(1130) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَدِمَ الْمَدِينَةَ فَوَجَدَ الْيَهُودَ صِيَامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟»

فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ أَنْجَى اللهُ فِيهِ مُوسَى وَ قَوْمَهُ وَ غَرَّقَ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمَهُ فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا

فَنَحْنُ نَصُومُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«فَنَحْنُ أَحَقُّ وَ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ فَصَامَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَ أَمَرَ بِصِيَامِهِ 50

(وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)

ثم ذكر منته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة ليُنزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة

*وَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي عَفْوِي عَنْكُمْ لَمَّا عَبَدْتُمُ الْعِجْلَ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَمَدِ الْمُوَاعَدَةِ

وَ كَانَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْأَعْرَافِ{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ}[الْأَعْرَافِ: 142]قِيلَ: إِنَّهَا ذُو الْقِعْدَةِ بِكَمَالِهِ وَ عَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَ كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ خَلَاصِهِمْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَ إِنْجَائِهِمْ من البحر

(ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ)ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده أي: ذهابه.

(وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ)عالمون بظلمكم قد قامت عليكم الحجة فهو أعظم جرما و أكبر إثما 51

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ)

ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضا فعفا الله عنكم بسبب ذلك

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)الله52

(وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ)التَّوْرَاةَ

{وَٱلْفُرْقَانَ }وَ هُوَ مَا يَفْرِقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ وَ الْهُدَى وَ الضَّلَالِ

{لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }وَ كَانَ ذَلِكَ -أَيْضًا-بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ.

لقوله:{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}

[الْقَصَصِ: 43]53

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ)قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ

{فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ)قَالَ: وَاحْتَبَى الَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ فَجَلَسُوا وَقَامَ الَّذِينَ لَمْ يَعْكُفُوا عَلَى الْعِجْلِ فَأَخَذُوا الْخَنَاجِرَ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَصَابَتْهُمْ ظُلَّة شَدِيدَةٌ فَجَعَلَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَانْجَلَتِ الظلَّة عَنْهُمْ وَ قَدْ أَجْلَوْا عَنْ سَبْعِينَ أَلْفَ قَتِيلٍ كُلُّ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ كَانَتْ لَهُ تَوْبَةٌ وَ كُلُّ مَنْ بَقِيَ كَانَتْ لَهُ تَوْبَةٌ.

قَالَ: أَمَرَ مُوسَى قَوْمَهُ -مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ -أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ

(ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ }

و هذا خير لكم عند خالقكم من الخلود الأبدي في النار 54

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً)عِيَانًا

–وهذا غاية الظلم و الجراءة على الله وعلى رسوله

(فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ)إما الموت أو الغشية العظيمة الصَّاعِقَةُ: صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ و قيل نـــــار

(وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ)وقوع ذلك كل ينظر إلى صاحبه

-فَصُعِقَ بَعْضُهُمْ وَبَعْضٌ يَنْظُرُونَ ثُمَّ بُعِثَ هَؤُلَاءِ وَصُعِقَ هَؤُلَاءِ55

(ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ)ثم أحييناكم من بعد موتكم بالصاعقة

(لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ)لتشكروا نعمة الله عليكم فهذا الموت عقوبة لهم ثم بعثهم الله لاستيفاء آجالهم56

–ثم ذكر نعمته عليكم في التيه و البرية الخالية من الظلال و سعة الأرزاق فقال:–(وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ)
وَهُوَ جَمْعُ غَمَامَةٍ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَغُمّ السَّمَاءَ أَىْ: يُوَارِيهَا وَيَسْتُرُهَا. وَ هُوَ السَّحَابُ الْأَبْيَضُ ظُلِّلوا بِهِ فِي التِّيهِ لِيَقِيَهُمْ حَرَّ الشَّمْسِ.

(وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ)

و هو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب و منه الزنجبيل و الكمأة و الخبز و غير ذلك
*** فَالْمَنُّ الْمَشْهُورُ إِنْ أُكِلَ وَحْدَهُ كَانَ طَعَامًا وَحَلَاوَةً وَ إِنْ مُزِجَ مَعَ الْمَاءِ صَارَ شَرَابًا طَيِّبًا
وَ إِنْ رُكِّبَ مَعَ غَيْرِهِ صَارَ نَوْعًا آخَرَ وَ لَكِنْ لَيْسَ هُوَ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ وَحْدَهُ..وَ الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الْبُخَارِي
عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ ﷺقَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ وَ مَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ" رابط الاعجاز العلمي

(وَٱلسَّلۡوَىٰۖ)طائر صغير يقال له السماني طيب اللحم فكان ينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم ويقيتهم
أَمْرُ إِبَاحَةٍ وَ إِرْشَادٍ وَ امْتِنَانٍ.

(كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ)أَمَرْنَاهُمْ بِالْأَكْلِ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ وَ أَنْ يَعْبُدُوا كَمَا قَالَ:-

{كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} [سَبَأ:15]
فَخَالَفُوا وَ كَفَرُوا فَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ:-الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَ الْمُعْجِزَاتِ الْقَاطِعَاتِ وَ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ–أى: رزقا لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفهين فلم يشكروا هذه النعمة و استمروا على قساوة القلوب و كثرة الذنوب.

(وَمَا ظَلَمُونَا)

يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين كما لا تنفعه طاعات الطائعين

(وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ) فيعود ضرره عليهم 57

وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ
نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ
فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ
فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ
كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ
عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ
قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ
وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾

(وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ)يَقُولُ تَعَالَى لَائِمًا لَهُمْ عَلَى نُكُولِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ(=تراجع وجَبُن) وَ دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ لَمَّا قَدِمُوا مِنْ بِلَادِ مِصْرَ صُحْبَةَ مُوسَى عليه السلام فَأُمِرُوا بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي هِيَ مِيرَاثٌ لَهُمْ عَنْ أَبِيهِمْ إِسْرَائِيلَ وَ قِتَالِ مَنْ فِيهَا مِنَ الْعَمَالِيقِ الْكَفَرَةِ فَنَكَلُوا عَنْ قِتَالِهِمْ وَضَعُفُوا وَ اسْتَحْسَرُوا فَرَمَاهُمُ اللَّهُ فِي التِّيهِ عُقُوبَةً لَهُمْ كَمَا ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ

{يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ21 قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ22 قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ23 قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: 21 - 24]

و هذا أيضا من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزا و وطنا و مسكنا

(فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا) يحصل لهم فيها الرزق الرغد

(وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ)

و أن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل وهو دخول الباب

(سُجَّدٗا)أي: خاضعين ذليلين و بالقول

(وَقُولُواْ حِطَّةٞ)أي أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته.

(نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ)بسؤالكم المغفرة

(وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)بأعمالهم أي: جزاء عاجل وآجلا.
أَيْ: إِذَا فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْنَاكُمْ غَفَرْنَا لَكُمُ الْخَطِيئَاتِ وضَعَفْنَا لَكُمُ الْحَسَنَاتِ.
*وَ حَاصِلُ الْأَمْرِ:أَنَّهُمْ أُمِرُوا أَنْ يَخْضَعُوا لِلَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْفَتْحِ بِالْفِعْلِ وَ الْقَوْلِ وَ أَنْ يَعْتَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُوا مِنْهَا وَ الشُّكْرُ عَلَى النِّعْمَةِ عِنْدَهَا وَ الْمُبَادَرَةُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْمَحْبُوبِ لِلَّهِ تَعَالَى
كقوله{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}[النَّصْرِ]
فَسَّرَهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَ الِاسْتِغْفَارِ عِنْدَ الْفَتْحِ وَ النَّصْرِ 58

(فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ)منهم و لم يقل (فبدلوا)لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا

(قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ)فقالوا بدل حطة:حبة في حنطة استهانة بأمر الله و استهزاء

و إذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى و أحرى و لهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم
*البخارى 4479-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:
{ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ} فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ فَبَدَّلُوا وَ قَالُوا: حِطَّةٌ حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ "
(= وفي رواية حنطة حبة في شعرة واحد الشعر:استهزاءا)

و لما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم قال:(فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ)منهم

(رِجۡزٗا)عذابا(مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ)بسبب فسقهم و بغيهم.
*وَ لِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَأْسَهُ وَعَذَابَهُ بِفِسْقِهِمْ وَ هُوَ خُرُوجُهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ وَ لِهَذَا قَالَ:
{فَأَنزلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}
وَ قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ﷜:-كُلُّ شَيْءٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ "الرِّجْزِ" يَعْنِي بِهِ الْعَذَابَ.
*مسلم(2218)عن أُسَامَةُ﷜: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«الطَّاعُونُ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَ إِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»
و قَالَ أَبُو النَّضْرِ: «لَا يُخْرِجُكُمْ إِلَّا فِرَارٌ مِنْهُ»(=الطَّاعُونُ هو قروح تخرج في الجسد فتكون في المرافق أو الآباط أو الأيدي أو الأصابع وسائر البدن ويكون معه ورم وألم شديد وتخرج تلك القروح مع لهيب ويسود ما حواليه أو يخضر أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة ويحصل معه خفقان القلب والقيء]59

(۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ)أي: طلب لهم ماء يشربون منه.

(فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ)إما حجر مخصوص معلوم عنده و إما اسم جنس

(فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ)و قبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة

(قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ)منهم

(مَّشۡرَبَهُمۡۖ)محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين فلا يزاحم بعضهم بعضا بل يشربونه متهنئين لا متكدرين

و لهذا قال:(كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ)أي: الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)أي: تخربوا على وجه الإفساد–وَ لَا تُقَابِلُوا النِّعَمَ بِالْعِصْيَانِ فَتُسْلَبُوهَا 60

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ)و اذكروا إذ قلتم لموسى على وجه التملل لنعم الله و الاحتقار لها

(لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ)أى: جنس من الطعام و إن كان كما تقدم أنواعا لكنها لا تتغير

(فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا)نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه

(وَقِثَّائِهَا)و هو الخيار(وَفُومِهَا)أى: ثومها (وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا)وكلاهما معروف(قَالَ)لهم موسى

(أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ)و هو الأطعمة المذكورة

(بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ)و هو المن و السلوى فهذا غير لائق بكم

(اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ)

فإن هذه الأطعمة التي طلبتم أي مصر هبطتموه وجدتموها و أما طعامكم الذي من الله به عليكم فهو خير الأطعمة و أشرفها فكيف تطلبون به بدلا؟

*هَذَا الَّذِي سَأَلْتُمْ لَيْسَ بِأَمْرٍ عَزِيزٍ بَلْ هُوَ كَثِيرٌ فِي أَيِّ بَلَدٍ دَخَلْتُمُوهُ وَجَدْتُمُوهُ
فَلَيْسَ يُسَاوِي مَعَ دَنَاءَتِهِ وَ كَثْرَتِهِ فِي الْأَمْصَارِ أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ فِيهِ

–و لما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه جازاهم من جنس عملهم فقال:(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ)التي تشاهد على ظاهر أبدانهم

(وَالْمَسْكَنَةُ)بقلوبهم فلم تكن أنفسهم عزيزة ولا لهم همم عالية بل أنفسهم أنفس مهينة وهممهم أردأ الهمم

*وُضِعَتْ عَلَيْهِمْ وَ أُلْزِمُوا بِهَا شَرْعًا وَ قَدَرًا أَيْ: لَا يَزَالُونَ مُسْتَذَلِّينَ مَنْ وَجَدَهُمُ اسْتَذَلَّهُمْ وَ أَهَانَهُمْ
وَ ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الصَّغَارَ وَ هُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَذِلَّاءُ مُتَمَسْكِنُونَ .

(وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ)

لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها و فازوا إلا أن رجعوا بسخطه عليهم فبئست الغنيمة غنيمتهم و بئست الحالة حالتهم.

(ذَٰلِكَ) الذي استحقوا به غضبه

(بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ)

الدالات على الحق الموضحة لهم فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم و بما كانوا

(وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

زيادة شناعة وإلا فمن المعلوم أن قتل النبي لا يكون بحق لكن لئلا يظن جهلهم وعدم علمهم.

(ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ)بأن ارتكبوا معاصى الله

(وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ)

وَ هَذِهِ عِلَّةٌ أُخْرَى فِي مُجَازَاتِهِمْ بِمَا جُوزُوا بِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْصُونَ وَ يَعْتَدُونَ
فَالْعِصْيَانُ فِعْلُ الْمَنَاهِ ى وَ الِاعْتِدَاءُ الْمُجَاوَزَةُ فِي حَدِّ الْمَأْذُونِ فِيهِ أو المأمور به. والله أعلم.

–على عباد الله فإن المعاصي يجر بعضها بعضا

– فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير ثم ينشأ عنه الذنب الكبير

–ثم ينشأ عنها أنواع البدع و الكفر و غير ذلك فنسأل الله العافية من كل بلاء.

*هَذَا الَّذِي جَازَيْنَاهُمْ مِنَ الذِّلَّةِ وَ الْمَسْكَنَةِ وَ إِحْلَالِ الْغَضَبِ بِهِمْ بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَإِهَانَتِهِمْ حَمَلَةَ الشَّرْعِ وَ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ فَانْتَقَصُوهُمْ إِلَى أَنْ أَفْضَى بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ قَتَلُوهُمْ فَلَا كِبْرَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ قَتَلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

وَ لِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:"الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ" مسلم91

و اعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها و هى فعل أسلافهم

و نسبت لهم لفوائد عديدة منها:–

1– أنهم كانوا يتمدحون و يزكون أنفسهم ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به

فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تقررت عندهم ما يبين به لكل أحد منهم أنهم ليسوا من أهل الصبر و مكارم الأخلاق و معالى الأعمال

فإذا كانت هذه حالة سلفهم مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم فكيف الظن بالمخاطبين؟

2–و منها:أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصلة إلى المتأخرين و النعمة على الآباء نعمة على الأبناء فخوطبوا بها لأنها نعم تشملهم و تعمهم.

3–و منها:أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل و تتساعد على مصالحها حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد و كان الحادث من بعضهم حادثا من الجميع.

لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع.

4–و منها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها و الراضي بالمعصية شريك للعاصي إلى غير ذلك من الحِكَم التى لا يعلمها إلا الله 61

. . . .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾
ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً
قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ
قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ
فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ)فَالْيَهُودُ أَتْبَاعُ مُوسَى ﷺالَّذِينَ كَانُوا يَتَحَاكَمُونَ إِلَى التَّوْرَاةِ فِي زَمَانِهِمْ.

وَ الْيَهُودُ مِنَ الْهَوَادَةِ وَهِيَ الْمَوَدَّةُ أَوِ التَّهَوُّدُ وَهِيَ التَّوْبَةُ كَقَوْلِ مُوسَى ﷺ:{إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} [الْأَعْرَاف: 156]
أَيْ: تُبْنَا فَكَأَنَّهُمْ سُمُّوا بِذَلِكَ فِي الْأَصْلِ لِتَوْبَتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ.
وَ قِيلَ: لِنِسْبَتِهِمْ إِلَى يَهُوذَا أَكْبَرِ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ ﷺو قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ:-
لِأَنَّهُمْ يَتَهَوَّدُونَ أَيْ: يَتَحَرَّكُونَ عِنْدَ قِرَاءَةِ التَّوْرَاةِ
فَلَمَّا بُعِثَ عِيسَى ﷺوَجَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ اتِّبَاعُهُ وَ الِانْقِيَادُ لَهُ فَأَصْحَابُهُ وَ أَهْلُ دِينِهِ هُمُ

(وَٱلنَّصَٰرَىٰ)وَ سُمُّوا بِذَلِكَ لِتَنَاصُرِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَ قَدْ يُقَالُ لَهُمْ: أَنْصَارٌ أَيْضًا كَمَا قَالَ عِيسَى ﷺ:-

{مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ} [آلِ عِمْرَانَ: 52]
وَ قِيلَ: إِنَّهُمْ إِنَّمَا سُمُّوا بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ نَزَلُوا أَرْضًا يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةٌ
*فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺخَاتَمًا لِلنَّبِيِّينَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَجَبَ عَلَيْهِمْ تصديقُه فِيمَا أَخْبَرَ وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ وَ الِانْكِفَافُ عَمَّا عَنْهُ زَجَرَ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا.
وَسُمِّيَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺمُؤْمِنِينَ لِكَثْرَةِ إِيمَانِهِمْ وَ شِدَّةِ إِيقَانِهِمْ وَ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِيَةِ وَ الْغُيُوبِ الْآتِيَةِ.

و هذا الحكم على أهل الكتاب خاصة لأن(وَٱلصَّٰبِـِٔينَ)الصحيح أنهم من جملة فرق النصارى
*الصَّابِئُونَ قَوْمٌ بَيْنَ الْمَجُوسِ وَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ.

*أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَيْسُوا عَلَى دِينِ الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى وَلَا الْمَجُوسِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ وَ إِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بَاقُونَ عَلَى فِطْرَتِهِمْ وَلَا دِينٌ مُقَرَّرٌ لَهُمْ يَتْبَعُونَهُ وَ يَقْتَفُونَهُ
وَ لِهَذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْبِزُونَ مَنْ أَسْلَمَ بِالصَّابِئِ أَيْ:-أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ عَنْ سَائِرِ أَدْيَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ.

(مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا)و صدقوا رسلهم

(فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ)فإن لهم الأجر العظيم و الأمن(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)فيما يستقبلونه

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)على ما يتركونه و يخلفونه و أما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر فهو بضد هذه الحال فعليه الخوف و الحزن 62

و اذكروا(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ)و هو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم

(وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ)الطُّورُ مَا أَنْبَتَ مِنَ الْجِبَالِ وَ مَا لَمْ يُنْبِتْ فَلَيْسَ بِطُورٍ.

و قيل لهم:(خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم)من التوراة(بِقُوَّةٍ)بجد واجتهاد و صبر على أوامر الله

(وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ)ما في كتابكم بأن تتلوه و تتعلموه (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

عذاب الله و سخطه أو لتكونوا من أهل التقوى فبعد هذا التأكيد البليغ 63

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ)و أعرضتم وكان ذلك موجبا لأن يحل بكم أعظم العقوبات
*ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْمِيثَاقِ الْمُؤَكَّدِ الْعَظِيمِ تَوَلَّيْتُمْ عَنْهُ وَانْثَنَيْتُمْ وَنَقَضْتُمُوهُ

(فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ)تَوْبَتُهُ عَلَيْكُمْ وَإِرْسَالُهُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ إِلَيْكُمْ

{لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ}بِنَقْضِكُمْ ذَلِكَ الْمِيثَاقَ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ 64

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ)هُمْ أَهْلُ "أَيْلَةَ"
*يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ مَا حَلَّ مِنَ الْبَأْسِ بِأَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي عَصَتْ أَمْرَ اللَّهِ وَ خَالَفُوا عَهْدَهُ وَ مِيثَاقَهُ فِيمَا أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ السَّبْتِ وَ الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ إِذْ كَانَ مَشْرُوعًا لَهُمْ فَتَحَيَّلُوا عَلَى اصطياد الحيتان في يوم السبت بِما وضعوا لَهَا مِنَ الشُّصُوصِ وَ الْحَبَائِلِ وَ الْبِرَكِ قَبْلَ يَوْمِ السَّبْتِ فَلَمَّا جَاءَتْ يَوْمَ السَّبْتِ عَلَى عَادَتِهَا فِي الْكَثْرَةِ نَشِبَتْ بِتِلْكَ الْحَبَائِلِ وَ الْحِيَلِ فَلَمْ تَخْلُصْ مِنْهَا يَوْمَهَا ذَلِكَ
فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَخَذُوهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ السَّبْتِ.
فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ مَسَخَهُمُ اللَّهُ إِلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ وَ هِىَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَنَاسِيِّ فِي الشَّكْلِ الظَّاهِرِ وَ لَيْسَتْ بِإِنْسَانٍ حَقِيقَةً.
فَكَذَلِكَ أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ وَ حِيَلُهُمْ لَمَّا كَانَتْ مُشَابِهَةً لِلْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَ مُخَالِفَةً لَهُ فِي الْبَاطِنِ كَانَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ.
–و هم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف فأوجب لهم هذا الذنب العظيم أن غضب الله عليهم

(فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)حقيرين ذليلين و جعل الله هذه العقوبة 65

(فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا)عبرة(لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا)لمن حضرها من الأمم و بلغه خبرها ممن هو في وقتهم.

(وَمَا خَلْفَهَا)

من بعدهم فتقوم على العباد حجة الله و ليرتدعوا عن معاصيه-لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ بِالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ عَنْهُمْ

(وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)لكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات.

*الْمُرَادُ بِالْمَوْعِظَةِ هَاهُنَا الزَّاجِرُ فَلْيَحْذَرِ الْمُتَّقُونَ صَنِيعَهُمْ لِئَلَّا يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ 66

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ)و اذكروا ما جرى لكم مع موسى حين قتلتم قتيلا و ادارأتم فيه

أي:تدافعتم و اختلفتم في قاتله حتى تفاقم الأمر بينكم و كاد–لولا تبيين الله لكم–يحدث بينكم شر كبير

فقال لكم موسى في تبيين القاتل:(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا)

اذبحوا بقرة و كان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره و عدم الاعتراض عليه ولكنهم أبوا إلا الاعتراض

فـــــــ(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا)أتجعلنا موضعًا للسخرية و الاستخفاف فقال نبي الله:–

(قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه و هو الذي يستهزئ بالناس

و أما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين و العقل استهزاءه بمن هو آدمي مثله

–و إن كان قد فضل عليه فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه و الرحمة لعباده 67

فلما قال لهم موسى ذلك علموا أن ذلك صدق فقالوا:(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ)ما سنها؟

(قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ)كبيرة (وَلَا بِكْرٌ)صغيرة -لم ينكحها الفحل

(عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ)نَصِفٌ بَيْنَ الْكَبِيرَةِ وَ الصَّغِيرَةِ وَ هِيَ أَقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الدَّوَابِّ وَ الْبَقَرِ وَأَحْسَنُ مَا تَكُونُ

(فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ)و اتركوا التشديد و التعنت 68

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ)شديد(لَوْنُهَا)

*شَدِيدَةُ الصُّفْرَةِ تَكَادُ مِنْ صُفْرَتِهَا تَبْيَضُّ-صافية اللون

(تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)من حسنها69

قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠
قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ
قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ
وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ
وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ
وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ
وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤ ۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ
وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥
وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم
بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦

(قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا)

لِكَثْرَتِهَا فَمَيِّزْ لَنَا هَذِهِ الْبَقَرَةَ وَصِفْهَا وجَلِّها لَنَا فلم نهتد إلى ما تريد

(وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ)70

(قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا)ليست(ذَلُولٞ)مذللة بالعمل (تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ)بالحراثة

(وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ)ليست بساقية -بَلْ هِيَ مُكَرَّمَةٌ حَسَنَةٌ صَبِيحَةٌ

(مُسَلَّمَةٞ)من العيوب أو من العمل

(لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ)لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم-لَا بَيَاضَ وَ لَا سَوَادَ. لَوْنُهَا وَاحِدٌ بَهِيمٌ

(قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ)بالبيان الواضح و هذا من جهلهم و إلا فقد جاءهم بالحق أول مرة

فلو أنهم اعترضوا أي بقرة لحصل المقصود و لكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم

و لو لم يقولوا « إن شاء الله » لم يهتدوا أيضا إليها

(فَذَبَحُوهَا)أى البقرة التي وصفت بتلك الصفات(وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ)بسبب التعنت الذي جرى منهم71

(وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ)

اخْتَلَفْتُمْ-اخْتَصَمْتُمْ فِيهَا-قَالَ بَعْضُهُمْ أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ وَ قَالَ آخَرُونَ:بَلْ أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ.

(وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ)ما تغيبون 72

(فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ)فلما ذبحوها قلنا لهم اضربوا القتيل

(بِبَعۡضِهَاۚ)بعضو منها إما معين أو أي عضو منها فليس في تعيينه فائدة فضربوه ببعضها فأحياه الله

وأخرج ما كانوا يكتمون فأخبر بقاتله

(كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ)و كان في إحيائه وهم يشاهدون ما يدل على إحياء الله الموتى

(لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ)فتنزجرون عن ما يضركم–فَضَرَبُوهُ فَحَيِيَ.

و نَبَّه تَعَالَى عَلَى قُدْرَتِهِ وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ أَمْرِ الْقَتِيلِ:

جَعَلَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى ذَلِكَ الصُّنْعَ حُجَّةً لَهُمْ عَلَى الْمَعَادِ وَ فَاصِلًا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْخُصُومَةِ وَ الْفَسَادِ

وَ اللَّهُ قَدْ ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا خَلَقَهُ فِي إِحْيَاءِ الْمَوْتَى فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ:-

1-{ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ}[البَقَرَة: 56] 2-وَ هَذِهِ الْقِصَّةُ

3-وَ قِصَّةُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ

4-وَ قِصَّةُ الذِي مرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا 5-وَ قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَ الطُّيُورِ الْأَرْبَعَةِ.

وَ نَبَّهَ تَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ بَعْدَ صَيْرُورَتِهَا رَمِيمًا 73

(ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم)اشتدت و غلظت فلم تؤثر فيها الموعظة

(مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ)أي:من بعد ما أنعم عليكم بالنعم العظيمة و أراكم الآيات

ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده ثم وصف قسوتها

(فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ)

التى هى أشد قسوة من الحديد لأن الحديد و الرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار.

(أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ)

إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار و ليست « أو » بمعنى « بل » ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم فقال:–

(وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ)

فبهذه الأمور فضلت قلوبكم. ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد فقال:(وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ)

بل هو عالم بها حافظ لصغيرها و كبيرها و سيجازيكم على ذلك أتم الجزاء و أوفاه.

و الاحاديث التالية تدل على دلائل نبوة النبى ﷺ:-

*البخارى -2889قال النبى ﷺهَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَ نُحِبُّهُ»

*أحمد236 -عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ﵄:أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَ الْمِنبَرَ

فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنبَرَ وَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ حَنَّ عَلَيْهِ فَأَتَاهُ فَاحْتَضَنَهُ فَسَكَنَ قَالَ:لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ74

(أَفَتَطۡمَعُونَ)أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ {أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ}

أَيْ:يَنْقَادُوا لَكُمْ بِالطَّاعَةِ هَؤُلَاءِ الْفِرْقَةُ الضَّالَّةُ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ شَاهَدَ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مَا شَاهَدُوهُ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

*هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب...فلا تطمعوا في إيمانهم و حالتهم لا تقتضي الطمع فيهم

(وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ}قَالَ ابْنُ زَيْدٍ

التَّوْرَاةُ التِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ يُحَرِّفُونَهَا:-

1- يَجْعَلُونَ الْحَلَالَ فِيهَا حَرَامًا 2-وَ الْحَرَامَ فِيهَا حَلَالًا 3- وَ الْحَقَّ فِيهَا بَاطِلًا 4-وَ الْبَاطِلَ فِيهَا حَقًّا

5- إِذَا جَاءَهُمُ الْمُحِقُّ بِرِشْوَةٍ أَخْرَجُوا لَهُ كِتَابَ اللَّهِ

6-وَ إِذَا جَاءَهُمُ الْمُبْطِلُ بِرِشْوَةٍ أَخْرَجُوا لَهُ ذَلِكَ الْكِتَابَ فَهُوَ فِيهِ مُحِقٌّ

7-وَ إِنْ جَاءَهُمْ أَحَدٌ يَسْأَلُهُمْ شَيْئًا لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ وَلَا رِشْوَةٌ وَ لَا شَيْءَ أَمَرُوهُ بِالْحَقِّ فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ:

{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[الْبَقَرَة44]

(مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ)علموه و فهموه

–فيضعون له معاني ما أرادها الله ليوهموا الناس أنها من عند الله وما هي من عند الله

(وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ)أَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ تَحْرِيفِهِ وَ تَأْوِيلِهِ؟وَ هَذَا الْمَقَامُ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ}[الْمَائِدَةِ: 13] 75

–ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب فقال:

(وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا)فأظهروا لهم الإيمان قولا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم

(وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ)بعض هؤلاء المنافقين من اليهود إلى بعض

–فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم قال بعضهم لبعض:

(قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ)

قالوا في إنكار:أتحدِّثون المؤمنين بما بيَّن الله لكم في التوراة من أمر محمد-من العذاب

(لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ)

فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟يقولون:إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق وما هم عليه باطل

(أَفَلَا تَعۡقِلُونَ)

أفلا يكون لكم عقل فتتركون ما هو حجة عليكم؟هذا يقوله بعضهم لبعض ...أفلا تفقهون فتحذروا؟76

أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ
إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ
هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ
وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ
قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾
بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾
وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ
وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ
ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾

(أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ)فهم و إن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم

(((من كفرهم بمحمد ﷺ وهو مكتوب عندهم في التوراة)))

وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين فإن هذا غلط منهم و جهل كبير فإن الله يعلم سرهم

(وَمَا يُعۡلِنُونَ)و علنهم فيُظهر لعباده ما أنتم عليه 77

(وَمِنۡهُمۡ)أي:من أهل الكتاب (أُمِّيُّونَ)عوام ليسوا من أهل العلم جَمْعُ أُمِّيٍّ الرَّجُلُ الذِي لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ

(لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ)أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط

(وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ)يكذبون

و ليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم و هؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم.

في هذه الآيات علماءهم و عوامهم و منافقيهم و من لم ينافق منهم:-

- فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال

-و العوام مقلدون لهم لا بصيرة عندهم فلا مطمع لكم في الطائفتين 78

(فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: -

{فَوَيْلٌ للذين يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}[البقرة: 79]قَالَ: «نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ»

*هَؤُلَاءِ صِنْفٌ آخَرُ مِنَ الْيَهُودِ وَهُمُ الدُّعَاةُ إِلَى الضَّلَالِ بِالزُّورِ وَالْكَذِبِ عَلَى اللهِ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.

*كَانَ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ كَتَبُوا كِتَابًا مِنْ عِنْدِهِمْ يَبِيعُونَهُ مِنَ الْعَرَبِ وَ يُحَدِّثُونَهُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَأْخُذُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

*البخارى685-عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الكِتَابِ وَ كِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺأَحْدَثُ الأَخْبَارِ بِاللَّهِ تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ(=لم يخلط بشيء غيره ولم يبدل ولم يغير) وَ قَدْ حَدَّثَكُمُ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ وَ غَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الكِتَابَ فَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَفَلاَ يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ العِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ وَ لاَ وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ

–توعد تعالى المحرفين للكتاب الذين يقولون لتحريفهم و ما يكتبون:(ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ)

و هذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق وإنما فعلوا ذلك مع علمهم

(لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ)

و الدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل فجعلوا باطلهم شركا يصطادون به ما في أيدي الناس

فظلموهـــــــم مـــــن وجهيـــــن:

1– من جهة تلبيس دينهم عليهم 2–و من جهة أخذ أموالهم بغير حق بل بأبطل الباطل

و ذلك أعظم ممن يأخذها غصبا و سرقة و نحوهما

و لهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال:(فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ)أى:من التحريف و الباطل

(وَوَيۡلٞ)شدة العذاب فى ضمنها الوعيد الشديد(لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ)من أموال الناس السفلة و غيرهم

–فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه

1–و هو متناول لمن حمل الكتاب و السنة على ما أصلَّه من البدع الباطلة

2–و ذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى

3–و هو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه

4–و متناول لمن كتب كتابا بيده مخالفا لكتاب الله لينال به دنيا

و قال: إنه من عند الله مثل أن يقول: هذا هو الشرع و الدين و هذا معنى الكتاب و السنة

و هذا معقول السلف و الأئمة و هذا هو أصول الدين الذي يجب اعتقاده على الأعيان و الكفاية

5–و متناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة لئلا يحتج به مخالفه في الحق الذي يقوله.

و هذه الأمور كثيرة جدا في أهل الأهواء جملة كالرافضة و تفصيلا مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء 79

(وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً)قليلة تُعد بالأصابع فجمعوا بين الإساءة و الأمن.

و لما كان هذا مجرد دعوى رد الله تعالى عليهم فقال:

(قُلْ)لهم يا أيها الرسول

(أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا)

بالإيمان به و برسله و بطاعته فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير و لا يتبدل.

(فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ؟

فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما: –

1–إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهدا فتكون دعواهم صحيحة.

2–و إما أن يكونوا متقولين عليه فتكون كاذبة فيكون أبلغ لخزيهم و عذابهم وقد عُلم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهدا لتكذيبهم كثيرا من الأنبياء

حتـــــى وصلت بهـــــم الحـــــال إلى:–

1– أن قتلوا طائفة منهم 2–و لنكولهم(=نكوصهم عن طاعة الله) عن طاعة الله و نقضهم المواثيق

فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون قائلون عليه ما لا يعلمون

و القول عليه بلا علم من أعظم المحرمات و أشنع القبيحات 80

☼ثم ذكر تعالى حكما عاما لكل أحد يدخل به بنو إسرائيل وغيرهم و هو الحكم الذي لا حكم غيره لا أمانيهم و دعاويهم بصفة الهالكين و الناجين فقال:-

(بَلَىٰ)أى:–ليس الأمر كما ذكرتم فإنه قول لا حقيقة له ولكن

(مَن كَسَبَ سَيِّئَةً)و هو نكرة في سياق الشرط فيعم الشرك فما دونه و المراد به هنا الشرك بدليل قوله:

(وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ)

أي:أحاطت بعاملها فلم تدع له منفذا و هذا لا يكون إلا الشرك فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته.

(فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ)

و قد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية و هى حجة عليهم كما ترى فإنها ظاهرة في الشرك

وهكذا كل مبطل يحتج بآية أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه81

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟)بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر(وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)

و لا تكـــــون الأعمـــــال صالحـــــة إلا بشرطيـــــن –

1-أن تكون خالصة لوجه الله2-متبعا بها سنة رسوله.

(أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ)

فحاصل هاتين الآيتين أن أهل النجاة و الفوز هم أهل الإيمان و العمل الصالح و الهالكون أهل النار المشركون بالله الكافرون به 82

(وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ)

هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به استعصوا فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة و العهود الموثقة

(لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ)

هذا أمر بعبادة الله وحده و نهى عن الشرك به

و هذا أصل الدين فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها فهذا حق الله تعالى على عباده ثم قال:

(وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا)أحسنوا بالوالدين إحسانا

1-و هذا يعم كل إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم

2-و فيه النهى عن الإساءة إلى الوالدين أو عدم الإحسان و الإساءة

(((لأن الواجب الإحسان و الأمر بالشيء نهى عن ضده)))

و للإحســــــان ضــــــدان:

1-الإساءة و هى أعظم جرما 2-و ترك الإحسان بدون إساءة و هذا محرم لكن لا يجب أن يلحق بالأول

(وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ)و كذا يقال في صلة الأقارب(وَٱلۡيَتَٰمَىٰ)الصغار الذين لا كاسب لهم من الاباء

(وَٱلۡمَسَٰكِينِ)الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ أَهْلِيهِمْ

و تفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد بل تكون بالحد كما تقدم ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموما فقال:-

(وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا)

و من القول الحسن:

1-أمرهم بالمعروف2-و نهيهم عن المنكر 3-و تعليمهم العلم4-و بذل السلام 5-و البشاشة

6-و غير ذلك من كل كلام طيب.

و لما كان الإنسان لا يسع الناس بماله أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق و هو الإحسان بالقول

-فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار و لهذا قال تعالى:

{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [العنكبوت: 46]

و مـــــــن أدب الإنســـــان الـــــذى أدب الله به عبـــــاده:-

1- أن يكون الإنسان نزيها في أقواله و أفعاله غير فاحش و لا بذىء و لا شاتم و لا مخاصم

2- بل يكون حسن الخلق واسع الحلم مجاملا لكل أحد صبورا على ما يناله من أذى الخلق

((امتثالا لأمر الله و رجاء لثوابه))

(وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ)ثم أمرهم بإقامة الصلاة (وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ)

لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود و الزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

(ثُمَّ)بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل عرف أن من إحسان الله على عباده أن أمرهم بها و تفضل بها عليهم وأخذ المواثيق عليكم

(تَوَلَّيۡتُمۡ)

على وجه الإعراض لأن المتولى قد يتولى و له نية رجوع إلى ما تولى عنه

و هؤلاء ليس لهم رغبة و لا رجوع في هذه الأوامر فنعوذ بالله من الخذلان.

(إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ)

هذا استثناء لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم فأخبر أن قليلا منهم عصمهم الله و ثبَّتهم.

(وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ)83

وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ
وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ
تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ
أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ
إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾
وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ
وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾

وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ
تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ

*البخارى :-6011 -عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«تَرى المُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ و تَوَادِّهِمْ وَ تَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى(=حرارة البدن وألمه)»

*و هذا الفعل المذكور في هذه الآية فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة و ذلك أن الأوس و الخزرج – و هم الأنصار – كانوا قبل مبعث النبيﷺمشركين و كانوا يقتتلون على عادة الجاهلية

فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود بنو قريظة(حُلَفَاءُ الْأَوْسِ)و بنو النضير(حُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ)و بنو قينقاع

(تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ)و يَتَقَوَّى كل فريق منكم على إخوانه بالأعداء بغيًا و عدوانًا

و الأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم:-

1-ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض

2-و لا يخرج بعضهم بعضا

3-(وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ)

و إذا وجدوا أسيرا منهم وجب عليهم فداؤه فعملوا بالأخير و تركوا الأولين فأنكر الله عليهم ذلك فقال:-

(أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ)و هو فداء الأسير

(وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ)و هو القتل و الإخراج.

و فيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر و اجتناب النواهى و أن المأمورات من الإيمان

قال تعالى:(فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ)

فليس جزاء مَن يفعل ذلك منكم إلا ذُلا و فضيحة في الدنيا.

*و قد وقع ذلك فأخزاهم الله و سلط رسوله عليهم فقتل من قتل و سبى من سبى منهم و أجلى من أجلى.

(وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ)أعظم (ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ) 85

*ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب و الإيمان ببعضه فقال:-

(أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ)

باعوا آخرتهم بدنياهم فخسروا خسراناً عظيماً بحقارة الدنيا و عظم الآخرة

و الاشتراء في الآية بمعنى:-

الاستبدال استبدلوا الآخرة فلم يعملوا لها بالدنيا حيث قصروا أعمالهم على تحصيلها.

-توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار فاختاروا النار على العار فلهذا قال:

(فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ)بل هو باق على شدته و لا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات

(وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ)يدفع عنهم مكروه86

(وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ)يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل لهم كليمه موسى وآتاه التوراة

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّا أَنزلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ} الْآيَةَ [الْمَائِدَةِ: 44]

(وَقَفَّيۡنَا)أَتْبَعْنَا (مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ)

كقوله{ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا}ثم تابع من بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة

(وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ)

إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم ﵇و آتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر

فَجَاءَ بِمُخَالَفَةِ التَّوْرَاةِ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ وَ لِهَذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ هِيَ: الْمُعْجِزَاتُ.

1-إِحْيَاءِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ

2-وَ خَلْقِهِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ

3-وَ إِبْرَائِهِ الْأَسْقَامَ بِإِذْنِ اللَّهِ

4-وَ إِخْبَارِهِ بِالْغُيُوبِ بِإِذْنِ اللَّهِ

5-وَ تَأْيِيدِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَهُوَ جِبْرِيلُ ﵇-مَا يَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ.

(وَأَيَّدۡنَٰهُ)قواه الله(بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ)جبريل عليه السلام و قيل:إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده.

ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها لما أتوكم

فَاشْتَدَّ تَكْذِيبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَهُ و حَسَدهم وَ عِنَادُهُمْ لِمُخَالَفَةِ التَّوْرَاةِ فِي الْبَعْضِ

كَمَا قَالَ تَعَالَى{وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}[آلِ عِمْرَانَ: 50] .

فَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تُعَامِلُ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَسْوَأَ الْمُعَامَلَةِ فَفَرِيقًا يُكَذِّبُونَهُ. وَ فَرِيقًا يَقْتُلُونَهُ وَ مَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَهُمْ بِالْأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِأَهْوَائِهِمْ وَ آرَائِهِمْ وَ بِإِلْزَامِهِمْ بِأَحْكَامِ التَّوْرَاةِ الَّتِي قَدْ تَصَرَّفُوا فِي مُخَالَفَتِهَا فَلِهَذَا كَانَ يَشُقُّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَيُكَذِّبُونَهُمْ وَ رُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَهُمْ لذلك قال الله:-

(أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ)عن الإيمان بهم(فَفَرِيقٗا)منهم(كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ)

فقدمتم الهوى على الهدى و آثرتم الدنيا على الآخرة و فيها من التوبيخ و التشديد ما لا يخفى 87

(وَقَالُواْ)اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه يا أيها الرسول بـــــــأن

(قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ)عليها غلاف و أغطية فلا تفقه ما تقول

يعني فيكون لهم – بزعمهم – عذر لعدم العلم و هذا كذب منهم

فلهذا قال تعالى:(بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ)أنهم مطرودون ملعونون بسبب كفرهم

(فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ)فقليلا المؤمن منهم أو قليلا إيمانهم و كفرهم هو الكثير.

فَقَلِيلٌ إِيمَانُهُمْ. بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَ الثَّوَابِ وَ الْعِقَابِ

وَ لَكِنَّهُ إِيمَانٌ لَا يَنْفَعُهُمْ لِأَنَّهُ مَغْمُورٌ بِمَا كَفَرُوا بِهِ مِنَ الذي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ 88

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ
أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ
أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ
ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ
خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ
بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

(وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ)على يد أفضل الخلق و خاتم الأنبياء

(مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ)المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة و قد علموا به و تيقنوه

(وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟)

حتى إنهم كانوا إذا وقع بينهم و بين المشركين في الجاهلية حروب استنصروا بهذا النبيﷺ و توعدوهم بخروجه و أنهم يقاتلون المشركين معه

(فَلَمَّا جَآءَهُم) هذا الكتاب و النبيﷺ (مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ)

الذي عرفوا كفروا به بغيا و حسدا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده

(فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ)فلعنهم الله و غضب عليهم غضبا بعد غضب لكثرة كفرهم و توالي شكهم و شركهم
*الصحيح المسند من أسباب النزول عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ عَنْ أَشْيَاخٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالَ:-
لَمَّا لَقِينَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- قَالَ لَنَا: مَنْ أَنْتُمْ؟ قُلْنَا: نَحْنُ الْخَزْرَجُ قَالَ:
أَمِنْ مَوَالِي الْيَهُودِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ قَالَ: أَفَلَا تَجْلِسُونَ حَتَّى أُكَلِّمَكُمْ؟ "
قُلْنَا: بَلَى قَالَ: فَجَلَسْنَا مَعَهُ " فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ - عز وجل - وَ عَرَضَ عَلَيْنَا الْإِسْلَامَ و تلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ "
قَالَ: وَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللَّهُ تَعَالَى بِنَا فِي الْإِسْلَامِ أَنَّ يَهُودَ كَانُوا مَعَنَا فِي بِلَادِنَا وَ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَ عِلْمٍ
وَ كُنَّا أَهْلَ شِرْكٍ أَصْحَابَ أَوْثَانٍ وَ كَانَتِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ قَدْ عَزُّوهُمْ بِبِلَادِهِمْ
وَ كَانُوا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ قَالُوا لَهُمْ:
إِنَّ نَبِيًّا مَبْعُوثٌ الْآنَ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ نَتَّبِعُهُ فَنَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَ إِرَمَ

قَالَ: -فَلَمَّا كَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- أُولَئِكَ النَّفَرَ وَ دَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:-

يَا قَوْمِ تَعْلَمُونَ وَ اللَّهِ إِنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدُكُمْ بِهِ الْيَهُودُ فَلَا تَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ وَ صَدَّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَ قَالُوا لَهُ:-

إِنَّا كُنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا وَ لَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَ الشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْمَعَهُمْ لَكَ فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ فَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ وَ نَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللَّهُ

فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ- ﷺ-رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ قَدْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا 89

(بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ)بَاعُوا (بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ)يَعْنِي: بِئْسَمَا اعْتَاضُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَ رَضُوا بِهِ

(أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ)

وَ عَدَلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺإِلَى تَصْدِيقِهِ وَ مُؤَازَرَتِهِ وَ نُصْرَتِهِ

(بَغۡيًا)وَ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْبَغْيُ وَ الْحَسَدُ وَ الْكَرَاهِيَةُ

{أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ}وَ لَا حَسَدَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا.

(فَبَآءُو)اسْتَوْجَبُوا وَ اسْتَحَقُّوا وَ اسْتَقَرُّوا (بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ)

غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرِهِمْ بِالْإِنْجِيلِ وَ عِيسَى ثُمَّ غَضِبَ عَلَيْهِمْ بِكُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ وَ بِالْقُرْآنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

(وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ)لَمَّا كَانَ كُفْرُهُمْ سَبَبُهُ الْبَغْيُ وَ الْحَسَدُ وَ مَنْشَأُ ذَلِكَ التَّكَبُّرُ :-

قُوبِلُوا بِالْإِهَانَةِ وَ الصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ 90

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ)إذا أُمِر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله وهو القرآن استكبروا وعتوا

و(قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا)

يَكْفِينَا الْإِيمَانُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنَ التَّوْرَاةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ لَا نُقِرُّ إِلَّا بِذَلِكَ أي: بما سواه من الكتب

(وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ)بما يعلمونه مع أن الواجب أن يؤمن بما أنزل الله مطلقا سواء أنزل عليهم أو على غيرهم وهذا هو الإيمان النافع الإيمان بما أنزل الله على جميع رسل الله.

و لهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا ردا شافيا و ألزمهم إلزاما لا محيد لهم عنه فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين

فقال:(وَهُوَ ٱلۡحَقُّ)وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺالْحَقُّ {مُصَدِّقٗا }

فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات و الأوامر و النواهى وهو من عند ربهم

*فالكفر به بعد ذلك كفر بالله و كفر بالحق الذي أنزله. ثم قال: (لِّمَا مَعَهُمۡۗ)

أَيْ فِي حَالِ تَصْدِيقِهِ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ الْإِنْجِيلِ فَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} [الْبَقَرَة: 146]

–أى:موافقا له في كل ما دل عليه من الحق و مهيمنا عليه.فلم تؤمنون بما أنزل عليكم و تكفرون بنظيره؟

هل هذا إلا تعصب و اتباع للهوى لا للهدى؟

و أيضا فإن كون القرآن مصدقا لما معهم يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به

فإذا كفروا به و جحدوه صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة و بينة ليس له غيرها و لا تتم دعواه إلا بسلامة بينته ثم يأتي هو لبينته و حجته فيقدح فيها و يكذب بها أليس هذا من الحماقة و الجنون؟

فكان كفرهم بالقرآن كفرا بما في أيديهم و نقضا له ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله:

(قُلْ)لهم يَا مُحَمَّدُ لِيَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ إِذَا قُلْتَ لَهُمْ:-آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا: {نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا}:-

(فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم)يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ (مُّؤْمِنِينَ)

بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ-أَنْبِيَاءَهُ وَ قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ الذي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ قَتْلَهُمْ بَلْ أَمَرَكُمْ فِيهِ بِاتِّبَاعِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ وَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ تَكْذِيبٌ لَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ:

{نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا} وَ تَعْيِيرٌ لَهُمْ 91

(وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ)

بِالْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ وَ الدَّلَائِلِ الْقَاطِعَةِ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَ الْبَيِّنَاتُ ه يَ: الطُّوفَانُ وَ الْجَرَادُ وَ الْقُمَّلُ وَ الضَّفَادِعُ وَ الدَّمُ وَ الْعَصَا وَ الْيَدُ و فَلْقَ الْبَحْرِ وَ تَظْلِيلُهُمْ بِالْغَمَامِ وَ الْمَنُّ وَ السَّلْوَى وَ الْحَجَرُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ التِي شَاهَدُوهَا

(ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ)أَيْ: مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي زَمَانِ مُوسَى وَآيَاتِهِ.

(مِنۢ بَعْدِهِۦ)أي: بعد مجيئه-مِنْ بَعْدِ مَا ذَهَبَ عَنْكُمْ إِلَى الطُّورِ لِمُنَاجَاةِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ} [الْأَعْرَافِ: 148]

(وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ) في ذلك ليس لكم عذر-فِي هَذَا الصَّنِيعِ الذِي صَنَعْتُمُوهُ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[الْأَعْرَافِ: 149] 92

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ)

يُعَدِّدُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ خَطَأَهُمْ وَ مُخَالَفَتَهُمْ لِلْمِيثَاقِ وَ عُتُوَّهُمْ وَ إِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ حَتَّى رَفَعَ الطُّورَ عَلَيْهِمْ

(خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ)بجد و اجتهاد

(وَٱسْمَعُواْ)سماع قبول و طاعة و استجابة

(قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) أي: صارت هذه حالتهم

(وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ)حُبَّهُ حَتَّى خَلُصَ ذَلِكَ إِلَى قُلُوبِهِمْ(ٱلۡعِجۡلَ)بسبب (بِكُفۡرِهِمۡ)

(قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ)

بئس الشئ الذي يأمركم به هذا الايمان الذي زعمتم انكم عليه فكيف تدعون لانفسكم الايمان

و قد فعلتم الافعال القبيحة من:-

1- نقضكم المواثيق

2-و كفركم بآيات الله

3- و عبادتكم العجل

أي: أنتـــــــم:-

1-تدعون الإيمان

2-و تتمدحون بالدين الحق

3-و أنتم قتلتم أنبياء الله

4-و اتخذتم العجل إلها من دون الله لما غاب عنكم موسى نبي الله

5-و لم تقبلوا أوامره و نواهيه إلا بعد التهديد و رفع الطور فوقكم

6-فالتزمتم بالقول و نقضتم بالفعل

فما هذا الإيمان الذي ادعيتم و ما هذا الدين؟.

فإن كان هذا إيمانا على زعمكم فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان و الكفر برسل الله و كثرة العصيان

و قد عهد أن الإيمان الصحيح :-

1-يأمر صاحبه بكل خير

2- و ينهاه عن كل شر فوضح بهذا كذبهم و تبين تناقضهم 93

. . . .

قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾
وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ
وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ
فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾
مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾
وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا
نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ
نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾

(قُلۡ)لهم على وجه تصحيح دعواهم:(إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ) يعني الجنة

(خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ)كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى

و أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى

(فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ)و هذا نوع مباهلة بينهم و بين رسول الله ﷺ

و ليس بعد هذا الإلجاء و المضايقة لهم بعد العناد منهم إلا أحد أمـــــــرين:-

1- إما أن يؤمنوا بالله و رسوله 2-و إما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم

و هو تمني الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم فامتنعوا من ذلك

(إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)

1-تَعْتَقِدُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مَنْ دُونِ النَّاسِ
2-وَ أَنَّكُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ
3-وَ أَنَّكُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَ مَنْ عَدَاكُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَبَاهِلُوا عَلَى ذَلِكَ
وَ ادْعُوا عَلَى الْكَاذِبِينَ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ الْمُبَاهَلَةَ تَسْتَأْصِلُ الْكَاذِبَ لَا مَحَالَةَ.
فَلَمَّا تيقّنوا ذَلِكَ وَ عَرَفُوا صِدْقَهُ :-
نَكَلُوا عَنِ الْمُبَاهَلَةِ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَذِبِهِمْ وَ افْتِرَائِهِمْ وَ كِتْمَانِهِمُ الْحَقَّ مِنْ صِفَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَ نَعْتِهِ
وَ هُمْ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَتَحَقَّقُونَهُ.
فَعَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ بَاطِلَهُمْ وَ خِزْيَهُمْ وَ ضَلَالَهُمْ و عنادهم عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.
وَ سُمِّيَتْ هَذِهِ الْمُبَاهَلَةُ تَمَنِّيًا:-

لِأَنَّ كُلَّ مُحِقٍّ يَوَدُّ لَوْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْمُبْطِلَ الْمُنَاظِرَ لَهُ وَ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ حُجَّةً لَهُ فِيهَا بَيَانُ حَقِّهِ وَظُهُورُهُ وَكَانَتِ الْمُبَاهَلَةُ بِالْمَوْتِ لِأَنَّ الْحَيَاةَ عِنْدَهُمْ عَزِيزَةٌ عَظِيمَةٌ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ سُوءِ مَآلِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ

٩٤

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾من الكفر و المعاصى

لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة

فالموت أكره شيء إليهم وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس حتى من المشركين الذين لا يؤمنون

بأحد من الرسل و الكتب﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾95

ثم ذكر شدة محبتهم للدنيا فقال:﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾

التنكير فى كلمة (حياة):-لتعم كل حياة و لو كانت ذميمة

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾عَلَى طُولِ عُمْرٍ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ مَآلِهِمُ السَّيِّئِ
وَ عَاقِبَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ الْخَاسِرَةِ لِأَنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ
فَهُمْ يَوَدُّونَ لَوْ تَأَخَّرُوا عَنْ مَقَامِ الْآخِرَةِ بِكُلِّ مَا أَمْكَنَهُمْ.
وَ مَا يَحْذَرُونَ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ حَتَّى وَهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ.

-و هذا أبلغ ما يكون من الحرص :-

تمنوا حالة هي من المحالات و الحال أنهم لو عمروا العمر المذكور لم يغن عنهم شيئا و لا دفع عنهم من العذاب شيئا.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ﴾بمبعده ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾.

﴿أَن يُعَمَّرَۗ﴾تعميره ألف سنة﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم 96

﴿قُلۡ﴾لهؤلاء اليهود الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك أن وليك جبريل عليه السلام

و لو كان غيره من ملائكة الله لآمنوا بك و صدقوا إن هذا الزعم منكم تناقض و تهافت و تكبر على الله

﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

*الصحيح المسند من أسباب النزول:حم2483- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ:أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا:- يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَ اتَّبَعْنَاكَ فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَا أَخَذَ إِسْرَائِيلُ عَلَى بَنِيهِ إِذْ قَالُوا: اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ قَالَ: «هَاتُوا»
1-قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ عَلامَةِ النَّبِيِّ قَالَ: «تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ»
2-قَالُوا: أَخْبِرْنَا كَيْفَ تُؤَنِّثُ الْمَرْأَةُ وَ كَيْفَ تُذْكِرُ؟ قَالَ:
يَلْتَقِي الْمَاءَانِ فَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَتْ وَ إِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ آنَثَتْ»
3-قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: " كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلائِمُهُ إِلا أَلْبَانَ كَذَا وَ كَذَا-قَالَ أَبِي:-قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي الْإِبِلَ «- فَحَرَّمَ لُحُومَهَا»

4-قالُوا:صَدَقْتَ قالُوا: أَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟قَالَ: «مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ بِيَدِهِ
-أَوْ فِي يَدِهِ-مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ»
قَالُوا:فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟قَالَ:صَوْتُهُ قَالُوا:-
صَدَقْتَ إِنَّمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي نُبَايِعُكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا
5- فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلا لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبِكَ؟ قَالَ: «جِبْرِيلُ عليه السلام»
قَالُوا: جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْعَذَابِ عَدُوُّنَا لَوْ قُلْتَ:مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَ النَّبَاتِ
وَ الْقَطْرِ لَكَانَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ} [البقرة: 97] إِلَى آخِرِ الْآيَةَ

*البخارى4480-عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ بِقُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
وَ هُوَ فِي أَرْضٍ يَخْتَرِفُ(=يجتني من ثمارها أي يجمعه من أصوله) فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺفَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ:
1-فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟2- وَ مَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ؟3- وَ مَا يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟
قَالَ:«أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا» قَالَ: جِبْرِيلُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلاَئِكَةِ
(=وقيل سبب عداوتهم لأنهم قالوا أمر أن تجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا وهذا منتهى جهلهم لأن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون)
فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}[البقرة: 97]
«أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ
وَ أَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ
وَ إِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدَ وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ المَرْأَةِ نَزَعَتْ»
قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ
وَ إِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ يَبْهَتُونِي فَجَاءَتِ اليَهُودُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-
«أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ فِيكُمْ»قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا قَالَ
«أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ»فَقَالُوا:
أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ
فَقَالُوا: شَرُّنَا وَ ابْنُ شَرِّنَا وَ انْتَقَصُوهُ قَالَ: فَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿٩٧﴾

(فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ)فإن جبريل عليه السلام هو الذى نزل بالقرآن من عند الله (عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ)

و هو الذي ينزل على الأنبياء قبلك–و الله هو الذي أمره و أرسله بذلك فهو رسول محض.

(مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)لما تقدمه من الكتب غير مخالف لها و لا مناقض

(وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)

و فيه الهداية التامة من أنواع الضلالات و البشارة بالخير الدنيوي و الأخروي لمن آمن به

(مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ)

فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك:–

1– كفر بالله و آياته2– و عداوة لله و لرسله و ملائكته

– فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله.

فيتضـــمن الكفر و العداوة:–

1– للذي أنزله و أرسله 2– و الذى أرسل به 3–و الذى أرسل إليه فهذا وجه ذلك 98

(وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ)يَا مُحَمَّدُ (ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۖ)عَلَامَاتٍ وَاضِحَاتٍ دَلَالَاتٍ عَلَى نُبُوَّتِكَ

وَ تِلْكَ الْآيَاتُ هِيَ:-

1- مَا حَوَاهُ كِتَابُ اللَّهِ مِنْ خَفَايَا عُلُومِ الْيَهُودِ

2-وَ مَكْنُونَاتِ سَرَائِرِ أَخْبَارِهِمْ

3-وَ أَخْبَارِ أَوَائِلِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ

4-وَ النَّبَأِ عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبُهُمُ التِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهَا إِلَّا أحبارهم وَعُلَمَاؤُهُمْ

5-وَ مَا حَرَّفَهُ أَوَائِلُهُمْ وَأَوَاخِرُهُمْ

6-و ما بَدَّلُوهُ مِنْ أَحْكَامِهِمْ التِي كَانَتْ فِي التَّوْرَاةِ.

–تحصل بها الهداية لمن استهدى وإقامة الحجة على من عاند و هى في الوضوح و الدلالة على الحق

(وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ)قد بلغت مبلغا عظيما و وصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله و خرج عن طاعة الله و استكبر غاية التكبر 99

(أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا)و هذا فيه التعجيب من كثرة معاهداتهم و عدم صبرهم على الوفاء بها.

فـــــــ« كُلَّمَا » تفيد التكرار فكلما وجد العهد

(نَّبَذَهُۥ)طرح ذلك العهد (فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ)و نقضوه فتراهم يُبْرِمون العهد اليوم و ينقضونه غدًا

–ترتب عليه النقض ما السبب في ذلك؟

السبب أن أكثرهم لا يؤمنون فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود

و لو صدق إيمانهم لكانوا مثل من قال الله فيهم:{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب: 23]

(بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ)لا يصدِّقون بما جاء به نبي الله و رسوله محمد ﷺ 100

(وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ) الموافق

(لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ)طرحوه رغبة عنه

(مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ)

و هذا أبلغ في الإعراض كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين و هم يعلمون صدقه و حقيّة ما جاء به.

(كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول فصار كفرهم به كفرا بكتابهم من حيث لا يشعرون.

*و لما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه و أمكنه الانتفاع به فلم ينتفع:- ابتلـــــــى بالاشتغــــــال بما يضـــــره :-

1-فمن ترك عبادة الرحمن ابتلي بعبادة الأوثان

2-و من ترك محبة الله و خوفه و رجاءه ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه

3-و من لم ينفق ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشيطان

4-و من ترك الذل لربه ابتلي بالذل للعبيد

5- و من ترك الحق ابتلي بالباطل.

۞كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين و تختلق من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر- و زعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله و به حصل له الملك العظيم101

وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ
يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ
حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ
وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ
وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ
لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ
لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ
عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

(وَٱتَّبَعُواْ)و اتبع اليهود(مَا تَتْلُواْ)ما تُحدِّث (ٱلشَّيَٰطِينُ)به السحرة (عَلَىٰ)عهد(مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ)بن داود.

–وهم كذبة في ذلك فلم يستعمله سليمان بل نزهه الصادق في قيله:–

وَ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ سُلَيْمَانُ عليه السلام إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْخَلَاءَ أَوْ يَأْتِيَ شَيْئًا مِنْ نِسَائِهِ أَعْطَى الْجَرَادَةَ -وَهِىَ امْرَأَةٌ-خَاتَمَهُ فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَ سُلَيْمَانَ عليه السلام بِالذي ابْتَلَاهُ بِهِ أَعْطَى الْجَرَادَةَ ذَاتَ يَوْمٍ خاتَمه فَجَاءَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ سُلَيْمَانَ فَقَالَ لَهَا: هَاتِي خَاتَمِي. فَأَخَذَهُ فَلَبِسَهُ. فَلَمَّا لَبِسَهُ دَانَتْ لَهُ الشَّيَاطِينُ وَ الْجِنُّ وَ الْإِنْسُ. قَالَ: فَجَاءَهَا سُلَيْمَانُ عليه السلام فَقَالَ: هَاتِي خَاتَمِي فَقَالَتْ: كَذَبْتَ لَسْتَ سُلَيْمَانَ. قَالَ: فَعَرَفَ سُلَيْمَانُ أَنَّهُ بَلَاءٌ ابْتُلِيَ بِهِ. قَالَ: فَانْطَلَقَتِ الشَّيَاطِينُ فَكَتَبَتْ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ كُتُبًا فِيهَا سِحْرٌ وَكُفْرٌ. ثُمَّ دَفَنُوهَا تَحْتَ كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ عليه السلام ثُمَّ أَخْرَجُوهَا وَ قَرَؤُوهَا عَلَى النَّاسِ وَ قَالُوا: إِنَّمَا كَانَ سُلَيْمَانُ يَغْلِبُ النَّاسَ بِهَذِهِ الْكُتُبِ. قَالَ: فَبَرِئَ النَّاسُ مِنْ سُلَيْمَانَ عليه السلام وَ كَفَّرُوهُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ:

{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا}

*اليهود لما نبذوا التوراة لتقريرها بنبوة محمد ﷺ و تأكيدها لصحة دينه اتبعوا الأباطيل و الترهات التي جمعها شياطين الإنس والجن في صورة رُقى وعزائم وكانوا يحدثون بها و يدّعون أنها من عهد سليمان بن داود عليهما السلام و أنها هى التي كان سليمان يحكم بها الإنس و الجن ولازم هذا أن سليمان لم يكن رسولاً و لا نبياً وإنما كان ساحراً كافراً فلذا نفى الله تعالى عنه ذلك بقوله: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}

و أثبته للشياطين فقال: {وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} .

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾أي: بتعلم السحر فلم يتعلمه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾ بذلك.

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم وكذلك

﴿ وَمَآ أُنزِلَ ﴾اتبع اليهود السحر الذي أنزل﴿عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ ﴾الكائنين ﴿بِبَابِلَ ﴾من أرض العراق

﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾أنزل عليهما السحر امتحانا و ابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم السحر.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ﴾ينصحاه

و ﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾لا تتعلم السحر فإنه كفر فينهيانه عن السحر و يخبرانه عن مرتبته

فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس و الإضلال و نسبته و ترويجه إلى من برأه الله منه

و هو سليمان ﷺو تعليم الملكين امتحانا مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة.

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين و السحر الذي يعلمه الملكان فتركوا علم الأنبياء والمرسلين

و أقبلوا على علم الشياطين و كل يصبو إلى ما يناسبه.

ثم ذكر مفاسد السحر فقال:﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾

مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما لأن الله قال في حقهما: {وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً}[الروم: 21]

و فى هذا دليل على أن السحر له حقيقة و أنه يضر بإذن الله أي: بإرادة الله

و الإذن نوعـــــان:

1–إذن قدرى وهو المتعلق بمشيئة الله كما في هذه الآية

2– و إذن شرعى كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

و فى هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء و القدر ليست مستقلة فى

التأثير و لم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد

زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة فأخرجوها عن قدرة الله فخالفوا كتاب الله و سنة رسوله و إجماع الصحابة

و التابعين.

*مسلم(2813)عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ
فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَ كَذَا فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا
قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ امْرَأَتِهِ قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَ يَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ
قَالَ الْأَعْمَشُ:أُرَاهُ قَالَ:فَيَلْتَزِمُهُ(=يضمه إلى نفسه ويعانقه)

وَ سَبَبُ التَّفَرُّقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ بِالسِّحْرِ:
مَا يُخَيَّلُ إِلَى الرَّجُلِ أَوِ الْمَرْأَةِ مِنَ الْآخَرِ مِنْ سُوءِ مَنْظَرٍ أَوْ خُلُقٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ أَوْ عَقد أَوْ بَغْضه
أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْفُرْقَةِ.

(وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ)

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة ليس فيه منفعة لا دينية و لا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي كما قال تعالى في الخمر و الميسر:{قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}[البقرة]

–فهذا السحر مضرة محضة فليس له داع أصلا فالمنهيات كلها إما مضرة محضة أو شرها أكبر من خيرها.

كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها.

(وَلَقَدۡ عَلِمُواْ)اليهود(لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ)رغب في السحر رغبة المشترى في السلعة.

(مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ)

نصيب بل هو موجب للعقوبة فلم يكن فعلهم إياه جهلا و لكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.

(وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ)علما يثمر العمل ما فعلوه 102

*الْبَدِيلُ مَا اسْتَبْدَلُوا بِهِ مِنَ السِّحْرِ عِوَضًا عَنِ الْإِيمَانِ وَ مُتَابَعَةِ الرُّسُلِ لَوْ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ بِمَا وُعِظُوا بِهِ

*قُلْتُ:-أَنْفَعُ مَا يُسْتَعْمَلُ لِإِذْهَابِ السِّحْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ فِي إِذْهَابِ ذَلِكَ

1-وَ هُمَا الْمُعَوِّذَتَانِ وَ فِي الْحَدِيثِ:

*النسائى432-عن ابْنَ عَابِسٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه أَخْبَرَه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ:-يَا ابْنَ عَابِسٍ أَلَا أَدُلُّكَ - أَوْ قَالَ: - أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟ " قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:

«(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) وَ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ»

2-وَ كَذَلِكَ قِرَاءَةُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ فَإِنَّهَا مُطَرِّدَةٌ لِلشَّيْطَانِ.

(وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ)بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ(وَٱتَّقَوۡاْ)الْمَحَارِمَ(لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ)لَكَانَ مَثُوبَةُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ

(خَيۡرٞۖ) لَهُمْ مِمَّا اسْتَخَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَ رَضُوا بِهِ

كقوله:{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص: 80]

(لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ 103

توجيه فى حقيقة العبودية لبنى اسرائيل 104-123

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ)

كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين:–

(رَٰعِنَا)راع أحوالنا فيقصدون بها معنى صحيحا و كان اليهود يريدون بها معنى فاسدا(يُورُونَ بِالرُّعُونَةِ)

فلنتهزوا الفرصة فصاروا يخاطبون الرسول ﷺ بذلك و يقصدون المعنى الفاسد

فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سدا لهذا الباب

1–ففيه النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلي محرم

2–و فيه الأدب واستعمال الألفاظ التي لا تحتمل إلا الحسن

3–و عدم الفحش وترك الألفاظ القبيحة أو التي فيها نوع تشويش

أو احتمال لأمر غير لائق فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن فقال:-

(وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا)فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور-انظر إلينا و تعهَّدْنا

(وَٱسْمَعُواْۗ)لم يذكر المسموع ليعم ما أمر باستماعه

فيدخـــــل فيه سماع القرآن و سماع السنة التي هي الحكمة لفظا و معنى و استجابة((ففيه الأدب و الطاعة))

(وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجع104

(مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ)

و أخبر عن عداوة اليهود و المشركين للمؤمنين أنهم ما يودون

(أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ)أى:لا قليلا و لا كثيرا(مِّن رَّبِّكُمْ)حسدا منهم و بغضا لكم

(وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ)أن يختصكم بفضله

(وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ)و من فضله عليكم إنزال الكتاب على رسولكم ليزكيكم و يعلمكم الكتاب

و الحكمة و يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فله الحمد و المنة105

*حصـــــــر بعضهم أصـــــول السحـــــــر فى ثلاثة هـــــــى:

1-زجر النفوس بمقدمات توهيمية و إرهابية بما اعتاده الساحر من التأثير النفسانى فى نفس المسحور الضعيف روحاً المستعد لقبول التأثير و يشهد لهذا قوله تعالى: {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ} .

2-استخدام مؤثرات من خصائص الأجسام من حيوان و معادن كالزئبق و سائر العقاقير المؤثرة و يشهد لهذا قوله تعالى: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ}

3-الشعوذة باستخدام خفايا الحركة و السرعة حين يخيل أن الجماد يتحرك. و يشهد لهذا قوله تعالى: {يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} الآية.

*اختلف هل للسحر حقيقة أو هو مجرد خداع لا أصل له:-

أهل السنة و الجماعة: أن له حقيقة و هو أنواع عديدة و حكمه:-

أن من تعاطاه إذا أضر به فأفسد عقلاًأو عضواً أو قتل فإنه يقتل بذلك

و إلا فإنه يعذر حتى يتوب منه و يشهد لمذهب الجمهور أن النبي ﷺ سحَره لَبِيد بن الأعصم

و أنزل الله تعالى سورة الفلق فرقاه بها جبريل فشفى و قال: "إن الله شفانى". و الحديث في البخارى و غيره.

. . . .

مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦
أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧
أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ
فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ
كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ
عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ
تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ
وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢

(مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ)مِثْلُ قَوْلِهِ:الشَّيْخُ وَ الشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ.
وَ قَوْلُهُ: "لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى لَهُمَا ثَالِثًا".
وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ}مَا يُنْقَلُ مِنْ حُكْمِ آيَةٍ إِلَى غَيْرِهِ فَنُبَدِّلُهُ وَ نُغَيِّرُ هُوَ ذَلِكَ
أَنْ يُحوِّلَ الحلالُ حَرامًا وَ الْحَرَامُ حَلاَلًا
وَ الْمُبَاحُ مَحْظُورًا وَ الْمَحْظُورُ مُبَاحًا.
وَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْأَمْرِ وَ النَّهْى وَ الْحَظْرِ وَ الْإِطْلَاقِ وَ الْمَنْعِ وَ الْإِبَاحَةِ.
فَأَمَّا الْأَخْبَارُ فَلَا يَكُونُ فِيهَا نَاسِخٌ وَ لَا مَنْسُوخٌ.

*البخارى4481 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه:-
أَقْرَؤُنَا أُبَيٌّ (=أجودنا قراءة للقرآن)وَ أَقْضَانَا عَلِيٌّ (= أعلمنا بالقضاء)وَ إِنَّا لَنَدَعُ (=لنترك)مِنْ قَوْلِ أُبَيٍّ (=شيئا من قرائته أو آرائه)
وَ ذَاكَ أَنَّ أُبَيًّا يَقُولُ:لاَ أَدَعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ".وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا}
(وذلك أن أبيا رضي الله عنه كان يقول لم ينسخ شيء من القرآن فرد عمر رضي الله عنه قوله واحتج عليه بقوله تعالى {ما ننسخ} التي تثبت النسخ في بعض كتاب الله عز وجل والنسخ في اللغة الإزالة والنقل والرفع ونسخ الآية إزالتها بإبدال أخرى مكانها أو رفعها بعدم قراءتها بالكلية والنسخ في اصطلاح الأصوليين رفع حكم خطاب سابق بخطاب لاحق وقد يكون النسخ للحكم دون التلاوة وقد يكون للتلاوة دون الحكم وقد يكون لهما معا)

النسخ: هو النقل فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر أو إلى إسقاطه
و كان اليهود ينكرون النسخ و يزعمون أنه لا يجوز و هو مذكور عندهم في التوراة فإنكارهم له كفر وهوى
محض. فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ و أنه ما ينسخ من آية(أَوۡ نُنسِهَا)
ننسها العباد فنزيلها من قلوبهم(نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ) و أنفع لكم (أَوۡ مِثۡلِهَآ)
فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول لأن فضله تعالى يزداد خصوصا على هذه الأمة

التي سهل عليها دينها غاية التسهيل و أخبر أن من قدح في النسخ فقد قدح في ملكه و قدرته فقال:

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)

فإذا كان مالكا لكم متصرفا فيكم تصرف المالك البر الرحيم في أقداره و أوامره و نواهيه

فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية فما له والاعتراض؟

(وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

و هو أيضا ولي عباده و نصيرهم فيتولاهم في تحصيل منافعهم و ينصرهم في دفع مضارهم فمن ولايته لهم: أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته و رحمته بهم.

–و من تأمل ما وقع في القرآن و السنة من النسخ:عرف بذلك:–

1–حكمة الله و رحمته عباده 2–و إيصالهم إلى مصالحهم من حيث لا يشعرون بلطفه.

وَ هَذَا الْخَبَرُ وَإِنْ كَانَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى خِطَابًا لِنَبِيِّهِ ﷺعَلَى وَجْهِ الْخَبَرِ عَنْ عَظَمَتِهِ فَإِنَّهُ مِنْهُ تَكْذِيبٌ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا نَسْخَ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ وَ جَحَدُوا نُبُوَّةَ عِيسَى وَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمَجِيئِهِمَا بِمَا جَاءَا بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِتَغَيُّرِ مَا غَيَّرَ اللَّهُ مِنْ حُكْمِ التَّوْرَاةِ فَأَخْبَرَهُمُ اللَّهُ أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسُلْطَانَهُمَا وَ أَنَّ الْخَلْقَ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَعَلَيْهِمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِأَمْرِهِ وَ نَهْيِهِ وَأَنَّ لَهُ أَمْرَهُمْ بِمَا يَشَاءُ وَنَهْيَهُمْ عَمَّا يَشَاءُ وَ نَسْخَ مَا يَشَاءُ وَ إِقْرَارَ مَا يَشَاءُ وَإِنْشَاءَ مَا يَشَاءُ مِنْ إِقْرَارِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ. (((الامثلة على النسخ)))

1-وَ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بِذَبْحِ وَلَدِهِ ثُمَّ نَسَخَهُ قَبْلَ الْفِعْلِ

2-وَ أَمَرَ جُمْهُورَ بَنِى إِسْرَائِيلَ بِقَتْلِ مَنْ عَبَدَ الْعِجْلَ مِنْهُمْ ثُمَّ رَفَعَ عَنْهُمُ الْقَتْلَ كَيْلَا يَسْتَأْصِلَهُمُ الْقَتْلُ .

قُلْتُ: الذِي يَحْمِلُ الْيَهُودَ عَلَى الْبَحْثِ فِي مَسْأَلَةِ النَّسْخِ:-

إِنَّمَا هُوَ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ النَّسْخِ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ مَعَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي كُتُبِهِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَشَرَائِعِهِ الْمَاضِيَةِ

3-كَمَا أَحَلَّ لِآدَمَ تَزْوِيجَ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ ثُمَّ حَرَّمَ ذَلِكَ

4-وَ كَمَا أَبَاحَ لِنُوحٍ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ السَّفِينَةِ أَكْلَ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ ثُمَّ نَسَخَ حِلَّ بعضها

5-و كان نكاح الأختين مباح لِإِسْرَائِيلَ وَ بَنِيهِ وَقَدْ حُرِّمَ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ وَ مَا بَعْدَهَا.

وَ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ وَيَصْدِفُونَ عَنْهُ.

وَ مَا يُجَابُ بِهِ عَنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ بِأَجْوِبَةٍ لَفْظِيَّةٍ فَلَا تُصْرَفُ الدَّلَالَةُ فِي الْمَعْنَى إِذْ هُوَ الْمَقْصُودُ

وَ كَمَا فِي كُتُبِهِمْ مَشْهُورًا مِنَ الْبِشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْأَمْرِ بِاتِّبَاعِهِ فَإِنَّهُ يفيد وجوب متابعته عليه و السلام

وَ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا عَلَى شَرِيعَتِهِ. وَسَوَاءٌ قِيلَ إِنَّ الشَّرَائِعَ الْمُتَقَدِّمَةَ مُغَيَّاةٌ إِلَى بِعْثَتِهِ عليه السلام

فَلَا يُسَمَّى ذَلِكَ نَسْخًا كَقَوْلِهِ: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [الْبَقَرَةِ: 187]

وَ قِيلَ: إِنَّهَا مُطْلَقَةٌ وَإِنَّ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺنَسَخَتْهَا فَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَوُجُوبُ اتِّبَاعِهِ مُعَيَّنٌ لِأَنَّهُ جَاءَ بِكِتَابٍ هُوَ آخِرُ الْكُتُبِ عَهْدًا بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.فَفِي هَذَا الْمَقَامِ بَيَّنَ تَعَالَى جَوَازَ النَّسْخِ رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ

حَيْثُ قَالَ تَعَالَى:{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ}فَكَمَا أَنَّ لَهُ الْمُلْكَ بِلَا مُنَازِعٍ فَكَذَلِكَ لَهُ الْحُكْمُ بِمَا يَشَاءُ {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}

وَقُرِئَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ الَّتِي نَزَلَ صَدْرُهَا خِطَابًا مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ وُقُوعُ النسخ عند اليهود في وقوله تَعَالَى:

{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ} [آلِ عِمْرَانَ: 93]107

(أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ)ينهى الله المؤمنين أو اليهود بأن يسألوا رسولهم

(كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ)و المراد بذلك أسئلة التعنت و الاعتراض كما قال تعالى:

{ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً

[النساء: 153]وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} [المائدة: 101]

فهذه و نحوها هي المنهي عنها.

*و أما سؤال الاسترشاد و التعلم فهذا محمود قد أمر الله به كما قال تعالى{ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}

*و يقررهم عليه كقوله{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ } [البقرة: 219]و{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى} [البقرة: 220].......

و لما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة قد تصل بصاحبها إلى الكفر قال:-

(وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ)

ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب وأنهم بلغت بهم الحال 108

(وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا)

و سعوا في ذلك و أعملوا المكايد و كيدهم راجع عليهم كما قال تعالى:-

{ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[آل عمران: 72]

(حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ)و هذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم.

مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ فَكَفَرُوا بِهِ حَسَدًا وَبَغْيًا إِذْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ.

(فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول-(أبو الشيخ في كتاب الأخلاق)-عن عروة عن أسامة بن زيد أنه أخبره أن رسول الله ﷺركب على حمار فقال لسعد:ألم تسمع ما قال أبو الحباب-يريد عبد الله بن أبي-قال كذا و كذا"فقال سعد بن عبادة:-اعف عنه واصفح فعفا عنه رسول الله ﷺ و كان رسول الله ﷺو أصحابه يعفون عن أهل الكتاب و المشركين فأنزل الله {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

*فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم والصفح حتى يأتي الله بأمره.

ثم بعد ذلك أتى الله بأمره إياهم بالجهاد فشفى الله أنفس المؤمنين منهم فقتلوا من قتلوا و استرقوا من استرقوا

و أجلوا من أجلوا(إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ)109

(وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ)

ثم أمرهم الله بالاشتغال في الوقت الحاضر بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و فعل كل القربات

(وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ)و وعدهم أنهم مهما فعلوا من خير فإنه لا يضيع

(عِندَ ٱللَّهِۗ)بل يجدونه عنده وافرا موفرا قد حفظه

(إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ)110

(وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ)

قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا

و قالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم

(تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ)

و هذا مجرد أماني غير مقبولة إلا بحجة و برهان فأتوا بها

(إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)

و هكذا كل من ادعى دعوى لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه

و إلا فلو قلبت عليه دعواه وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما

فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها ولما لم يكن بأيديهم برهان علم كذبهم بتلك الدعوى111

*ثم ذكر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد فقال:–(بَلَىٰ)ليس بأمانيكم و دعاويكم

و لكن (مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ)أخلص لله أعماله متوجها إليه بقلبه (وَهُوَ)مع إخلاصه

(مُحۡسِنٞ)فى عبادة ربه بأن عبده بشرعه فأولئك هم أهل الجنة وحدهم.

مُتَّبِعٌ فِيهِ الرَّسُولَ ﷺ. فَإِنَّ لِلْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ شَرْطَيْنِ:-

1- أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ وَحْدَهُ 2- أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ.

فَمَتَى كَانَ خَالِصًا وَ لَمْ يَكُنْ صَوَابًا :-لَمْ يُتَقَبَّلْ

وَ لِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ"رَوَاهُ مُسْلِمٌ

*فَعَمَلُ الرُّهْبَانِ وَ مَنْ شَابَهَهُمْ–وَ إِنْ فُرِضَ أَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ فِيهِ لِلَّهِ-فَإِنَّهُ لَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُمْ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ

مُتَابِعًا لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ وَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَ فِيهِمْ وَ أَمْثَالِهِمْ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:-{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الْفُرْقَانِ: 23]

*وَ أَمَّا إِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ وَ لَكِنْ لَمْ يُخْلِصْ عَامِلُهُ الْقَصْدَ لِلَّهِ:-

فَهُوَ أَيْضًا مَرْدُودٌ عَلَى فَاعِلِهِ وَ هَذَا حَالُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُرَائِينَ

كَمَا قَالَ تَعَالَى:{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلا} [النِّسَاءِ: 142]

(فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ)و هو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم

(وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ)فحصل لهم المرغوب و نجوا من المرهوب.

و يفهم منها أن من ليس كذلك فهو من أهل النار الهالكين فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول 112

وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ
كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ
إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ
فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ
بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا
فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ
كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ
﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

(وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ)

و ذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى و الحسد إلى أن بعضهم ضلَّل بعضا و كفَّر بعضهم بعضا

(كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ)

كما فعل الأميون من مشركي العرب و غيرهم فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى

(فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ)

ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل الذى أخبر به عباده فإنه لا فوز و لا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين و امتثل أوامر ربه واجتنب نواهيه و من عداهم فهو هالك113

(وَمَنۡ أَظۡلَمُ)لا أحد أظلم و أشد جرما(مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ)

عن ((ذكر الله فيها و إقامة الصلاة و غيرها من الطاعات))

(وَسَعَىٰ)اجتهد و بذل وسعه (فِي خَرَابِهَآۚ)الحسي و المعنوى

فالخراب الحسي:هدمها و تخريبها و تقذيرها و الخراب المعنوى:منع الذاكرين لاسم الله فيها

و هذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة فيدخل في ذلك أصحاب الفيل و قريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية و النصارى حين أخربوا بيت المقدس و غيرهم

(أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ)

فجازاهم الله بأن منعهم دخولها شرعا و قدرا إلا خائفين ذليلين فلما أخافوا عباد الله أخـــــــافهم الله

*فالمشركون الذين صدوا رسوله لم يلبث رسول الله ﷺإلا يسيرا حتى أذن الله له في فتح مكة ومنع المشركين من قربان بيته فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 28].

☼و أصحاب الفيل قد ذكر الله ما جرى عليهم

☼و النصارى سلط الله عليهم المؤمنين فأجلوهم عنه.

و استدل العلماء بالآية الكريمة:على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد.

(لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ)فضيحة كما تقدم(وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ)

و إذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه

فلا أعظم إيمانا ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية كما قال تعالى:

{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ }[التوبة: 18] بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته و تعظيمها و تكريمها فقال تعالى:-

{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [النور: 36]

و للمساجد أحكام كثيرة يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة114

(وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ)115

(وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول: مسلم (700)عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺقَالَ:

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺيُصَلِّي وَ هُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ قَالَ:

وَ فِيهِ نَزَلَتْ {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ} [البقرة: 115]

خصهما بالذكر لأنهما محل الآيات العظيمة فهما مطالع الأنوار ومغاربها فإذا كان مالكا لها كان مالكا لكل الجهات.

(فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ)وجوهكم من الجهات إذا كان توليكم إياها بأمره

☼ إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس

☼ أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة و نحوها

-فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشتبه القبلة فيتحرى الصلاة إليها ثم يتبين له الخطأ أو يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك فهذه الأمور إما أن يكون العبد فيها معذورا أو مأمورا.

و بكل حال فما استقبل جهة من الجهات خارجة عن ملك ربه.

*البخارى4535 - عَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ صَلاَةِ الخَوْفِ قَالَ: «يَتَقَدَّمُ الإِمَامُ وَطَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ فَيُصَلِّي بِهِمُ الإِمَامُ رَكْعَةً وَتَكُونُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ العَدُوِّ لَمْ يُصَلُّوا فَإِذَا صَلَّى الَّذِينَ مَعَهُ رَكْعَةً اسْتَأْخَرُوا مَكَانَ الَّذِينَ لَمْ يُصَلُّوا وَلاَ يُسَلِّمُونَ وَيَتَقَدَّمُ الَّذِينَ لَمْ يُصَلُّوا فَيُصَلُّونَ مَعَهُ رَكْعَةً ثُمَّ يَنْصَرِفُ الإِمَامُ وَقَدْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ فَيُصَلُّونَ لِأَنْفُسِهِمْ رَكْعَةً بَعْدَ أَنْ يَنْصَرِفَ الإِمَامُ فَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ قَدْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ هُوَ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ صَلَّوْا رِجَالًا قِيَامًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ أَوْ رُكْبَانًا مُسْتَقْبِلِي القِبْلَةِ أَوْ غَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا»
قَالَ مَالِكٌ: قَالَ نَافِعٌ: لاَ أُرَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(فَثَمَّ)هناك(وَجْهُ ٱللَّهِۚ)فيه إثبات الوجه لله تعالى على الوجه اللائق به تعالى و أن لله وجها لا تشبهه الوجوه

(إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ)يَسَعُ خَلْقَهُ كُلَّهُمْ بِالْكِفَايَةِ وَ الْإِفْضَالِ وَ الْجُودِ .

و هو – تعالى – واسع الفضل والصفات عظيمها عليم بسرائركم و نياتكم.فمن سعته وعلمه وسع لكم الأمر وقبل منكم المأمور فله الحمد و الشكر.

(وَقَالُواْ)اليهود و النصارى و المشركون و كل من قال ذلك:(ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ)

فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله وأساءوا كل الإساءة وظلموا أنفسهم. وهو – تعالى – صابر على ذلك منهم قد حلم عليهم وعافاهم ورزقهم مع تنقصهم إياه.

(سُبۡحَٰنَهُۥۖ)تنزه و تقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله فسبحان من له الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه و مع رده لقولهم أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك فقال: (بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ)

أي: جميعهم ملكه وعبيده يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك

قَالَ الْبُخَارِيُّ4482 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:
قَالَ اللَّهُ: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ وَ أَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا»

(كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ)1-مُصَلِّينَ2-مُقِرُّون لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ3- الْإِخْلَاص 4-مُطِيعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.
5-طَاعَةُ الْكَافِرِ فِي سُجُودِ ظِلِّهُ وَ هُوَ كَارِهٌ
وَ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ مُجَاهِدٍ - -يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا وَ هُوَ أَنَّ الْقُنُوت: هُوَ الطَّاعَةُ وَ الِاسْتِكَانَةُ إِلَى اللَّهِ
وَ ذَلِكَ شَرْعِيٌّ و قَدرى كَمَا قَالَ تَعَالَى:
{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} [الرَّعْدِ: 15]
و القنـــــوت نوعـــــان:

1–قنوت عام:و هو قنوت الخلق كلهم تحت تدبير الخالق كما في هذه الآية 2–و خاص:و هو قنوت العبادة.

كقوله{وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } [البقرة: 238]116

ثم قال: (بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ)خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق.

(وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)فلا يستعصى عليه و لا يمتنع منه.

*يُبَيِّنُ بِذَلِكَ تَعَالَى كَمَالُ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمَ سُلْطَانِهِ وَأَنَّهُ إِذَا قَدَّر أَمْرًا وَأَرَادَ كَوْنَهُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ. أَيْ:- مَرَّةً وَاحِدَةً فَيَكُونُ فَيُوجَدُ عَلَى وَفْقِ مَا أَرَادَ كقوله:{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[يس: 82]

وَ نَبَّهَ تَعَالَى بِذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ خَلْقَ عِيسَى بِكَلِمَةِ: كُنْ فَكَانَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آلِ عِمْرَانَ: 59] .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)قال الجهلة من أهل الكتاب و غيرهم:-(لَوْلَا)هلا (يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ)كما كلم الرسل

(أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ)يعنون آيات الاقتراح التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة و آرائهم الكاسدة التى تجرأوا بها على الخالق واستكبروا على رسله كقولهم:{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ55 ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[البقرة: 55- 56]

(قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ)و مثل هذا القول قالته الأمم من قبلُ لرسلها عنادًا ومكابرة

(تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ)أَشْبَهَتْ قُلُوب مُشْرِكِي الْعَرَبِ قُلُوبَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ فِى:-الْكُفْرِ وَ الْعِنَادِ وَ الْعُتُوِّ

كقوله{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ}[الذَّارِيَاتِ: 52 53] .

–فهذا دأبهم مع رسلهم يطلبون آيات التعنت لا آيات الاسترشاد و لم يكن قصدهم تبين الحق

فإن الرسل قد جاءوا من الآيات بما يؤمن بمثله البشر و لهذا قال تعالى:

(قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)فكل موقن فقد عرف من آيات الله الباهرة ما حصل له به اليقين و اندفع عنه كل شك و ريب 118

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ و صحة ما جاء به فقال:–

(إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ)فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها و هـــى ترجـــع إلى ثلاثة أمور:–

الأول: في نفس إرساله و الثانى: في سيرته و هديه و دله و الثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن و السنة.

فالأول و الثاني قد دخلا في قوله:(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ) و الثالث دخل في قوله: (بِالْحَقِّ) .

و بيان الأمر الأول وهو – نفس إرساله – أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺو ما كانوا عليه من عبادة الأوثان و النيران و الصلبان و تبديلهم للأديان حتى كانوا في ظلمة من الكفر قد عمتهم و شملتهم إلا بقايا من أهل الكتاب قد انقرضوا قبيل البعثة.

و قد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى و لم يتركهم هملا لأنه حكيم عليم قدير رحيم

-فمن حكمته و رحمته بعباده أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه وهو آية كبيرة على أنه رسول الله

و أما الثانى:فمن عرف النبي ﷺمعرفة تامة و عرف سيرته و هديه قبل البعثة و نشوءه على أكمل الخصال ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين فمن عرفها وسبر أحواله عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها و صدقهم و كذبهم.

و أما الثالث:فهو معرفة ما جاء به ﷺمن الشرع العظيم والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة و الأوامر الحسنة و النهى عن كل قبيح و المعجزات الباهرة فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

(بَشِيرًا)لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية(وَنَذِيرًاۖ)لمن عصاك بالشقاوة و الهلاك الدنيوي و الأخروى.

(وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ)لست مسئولا عنهم إنما عليك البلاغ و علينا الحساب.

{وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: 40]119

وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم
بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ
أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ
وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ
وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ
قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ
وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾
وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ
قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

(وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ)وَ لَيسَتِ الْيَهُودُ -يَا مُحَمَّدُ -وَ لَا النَّصَارَى بِرَاضِيَةٍ عَنْكَ أَبَدًا فَدَعْ طَلَبَ مَا يُرْضِيهِمْ وَ يُوَافِقُهُمْ وَ أَقْبِلْ عَلَى طَلَبِ رِضَا اللَّهِ فِي دُعَائِهِمْ إِلَى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ.

(قُلۡ)لهم (إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ) الذي أرسلت به (هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ)و أما ما أنتم عليه فهو الهوى بدليل قوله

(وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ)

فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى و التشبه بهم فيما يختص به دينهم والخطاب و إن كان لرسول الله ﷺفإن أمته داخلة في ذلك (((لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب)))

(((كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)))120

(ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ)يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ومنَّ عليهم به منة مطلقة أنهم

(يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ)يتبعونه حق اتباعه و التلاوة: الاتباع فيحلون حلاله و يحرمون حرامه و يعملون بمحكمه و يؤمنون بمتشابهه

و هؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب الذين عرفوا نعمة الله وشكروها وآمنوا بكل الرسل ولم يفرقوا بين أحد منهم. فهؤلاء هم المؤمنون حقا لا من قال منهم:{نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ} [البقرة: 91].

*مسلم (153) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺأَنَّهُ قَالَ:
«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»

و لهذا توعدهم بقوله(وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ)121

(يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا

وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ)

قَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي صَدْرِ السُّورَةِ وَ كُرِّرَتْ هَاهُنَا لِلتَّأْكِيدِ

1-وَ الْحَثِّ على اتباع الرسول النبي الْأُمِّيِّ الذِي يَجِدُونَ صِفَتَهُ فِي كُتُبِهِمْ و نعته وَ اسْمَهُ وَ أَمْرَهُ وَ أُمَّتَهُ.
يُحَذِّرُهُمْ مِنْ كِتْمَانِ هَذَا وَ كِتْمَانِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ

2-وَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَ الدِّينِيَّةِ

3-وَ لَا يَحْسُدُوا بَنِي عَمِّهِم مِنَ الْعَرَبِ عَلَى مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ إِرْسَالِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ مِنْهُمْ.

4-وَ لَا يَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ الحسدُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ وَ تَكْذِيبِهِ وَ الْحَيْدَةِ عَنْ مُوَافَقَتِهِ ﷺ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ123

مثال ايجابي لتحقيق العبودية :قصة ابراهيم عليه السلام 124-141

(وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ)بِشَرَائِعَ وَ أَوَامِر وَنَـوَاهٍ

*وَ تُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا الشَّرْعِيَّةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}[الْأَنْعَامِ: 115]

أَيْ:-كَلِمَاتُهُ الشَّرْعِيَّةُ. وَ هِيَ إِمَّا خَبَرُ صِدْقٍ وَ إِمَّا طَلَبُ عَدْلٍ إِنْ كَانَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا -وَ مِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ

*الْكَلِمَاتِ تُطْلَقُ وَ يُرَادُ بِهَا الْكَلِمَاتُ الْقَدَرِيَّةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ:-

{وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [التَّحْرِيمِ: 12] .

–يخبر تعالى عن عبده و خليله إبراهيم عليه السلام المتفق على إمامته وجلالته الذي كل من طوائف أهل الكتاب

تدعيه بل و كذلك المشركون أن الله ابتلاه وامتحنه (بِكَلِمَٰتٖ) أي: بأوامر ونواهى كما هي عادة الله في ابتلائه

لعباده

*ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء و الامتحان من الصادق الذي ترتفع درجته و يزيد قدره و يزكو عمله

و يخلص ذهبه وكان من أجلِّهم في هذا المقام الخليل عليه السلام.

(فَأَتَمَّهُنَّۖ)فأتم ما ابتلاه الله به و أكمله و وفاه فشكر الله له ذلك و لم يزل الله شكورا

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [النَّجْمِ: 37]

*قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالْمَنَاسِكِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالطَّهَارَةِ:خَمْسٌ فِي الرَّأْسِ وَخَمْسٌ فِي الْجَسَدِ
فِي الـرَّأْسِ:1- قص الشَّارِبِ2- وَ الْمَضْمَضَةُ3-وَ الِاسْتِنْشَاقُ4- وَ السِّوَاكُ5- و فَرْقِ الرَّأْسِ.
وَ فِي الْجَسَدِ:1- تَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ2- وَحَلْقُ الْعَانَةِ 3-وَالْخِتَانُ4-ونَتْف الْإِبِطِ5- وَغَسْلُ أَثَرِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ بِالْمَاءِ .
قُلْتُ: وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا مَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رقم(261) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ:قَصُّ الشَّارِبِ وَ إِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ وَ السِّوَاكُ وَ اسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ وَقَصُّ الْأَظْفَارِ
وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ وَنَتْفُ الْإِبِطِ وَحَلْقُ الْعَانَةِ وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ "قَالَ زَكَرِيَّا: قَالَ مُصْعَبٌ:وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ الْمَضْمَضَةَ زَادَ قُتَيْبَةُ قَالَ وَكِيعٌ: " انْتِقَاصُ الْمَاءِ: يَعْنِي الِاسْتِنْجَاءَ "
*كَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: أَيْ وَ اللهِ ابْتَلَاهُ بِأَمْرٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِ:-ابْتَلَاهُ بِالْكَوْكَبِ وَ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ فَأَحْسَنَ فِي ذَلِكَ

وَ عَرَفَ أَنَّ رَبَّهُ دَائِمٌ لَا يَزُولُ فَوَجَّهَ وجهه للذي فطر السموات وَ الْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.
ثُمَّ ابْتَلَاهُ بِالْهِجْرَةِ فَخَرَجَ مِنْ بِلَادِهِ وَقَوْمِهِ حَتَّى لَحِقَ بِالشَّامِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ -
ثُمَّ ابْتَلَاهُ بِالنَّارِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ
وَ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِذَبْحِ ابْنِهِ وَ الْخِتَانِ فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ.

(قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)يقتدون بك في الهدى و يمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية جَزَاءً عَلَى مَا فَعَلَ كَمَا قَامَ بِالْأَوَامِرِ و تَرَكَ الزَّوَاجِرَ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ قُدْوَةً وَ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ و يحتذى حذوه.

(قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي)فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام و أدرك هذا طلب ذلك لذريته لتعلو درجته ودرجة ذريته وهذا أيضا من إمامته ونصحه لعباد الله ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون فلله عظمة هذه الهمم العالية والمقامات السامية. فأجابه الرحيم اللطيف و أخبر بالمانع من نيل هذا المقام

فــ(قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه و ضرها وحط قدرها لمنافاة الظلم لهذا المقام فإنه مقام آلته الصبر و اليقين

–و دل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة و لكن مع إتيانه بأسبابها124

ثم ذكر تعالى نموذجا باقيا دالا على إمامة إبراهيم:

و هو هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ركنا من أركان الإسلام حاطا للذنوب والآثام.

و فيه من آثار الخليل و ذريته ما عرف به إمامته و تذكرت به حالته فقال:–

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ)

مرجعا يثوبون إليه لحصول منافعهم الدينية و الدنيوية يترددون إليه و لا يقضون منه وطرا
وَ مَضْمُونُ مَا فَسَّرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ هَذِهِ الْآيَةَ:أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُ شَرَفَ الْبَيْتِ وَ مَا جَعَلَهُ مَوْصُوفًا بِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا مِنْ كَوْنِهِ مَثَابَةً لِلنَّاسِ أَيْ: جَعَلَهُ مَحلا تَشْتَاقُ إِلَيْهِ الْأَرْوَاحُ وَ تَحِنُّ إِلَيْهِ وَلَا تَقْضِي مِنْهُ وَطَرًا
وَ لَوْ ترددت إِلَيْهِ كُلَّ عَامٍ اسْتِجَابَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِدُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي قَوْلِهِ:
{فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ}إِلَى أَنْ قَالَ: {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} [إبْرَاهِيمَ: 37 -40]
وَ يَصِفُهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ جَعَلَهُ أَمْنًا مَنْ دَخَلَهُ أَمِنَ وَ لَوْ كَانَ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ثُمَّ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا
كَمَا وَصَفَهَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ97}
أَيْ: يُرْفَعُ عَنْهُمْ بِسَبَبِ تَعْظِيمِهَا السوءُ
*الصحيح المسند من أسباب النزول: صحيح البخاري 402عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ:
قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ:
فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَنَزَلَتْ:{وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}[البقرة: 125]....

(و) جعله (وَأَمْنًا)يأمن به كل أحد حتى الوحش و حتى الجمادات كالأشجار

و لهذا كانوا في الجاهلية–على شركهم–يحترمونه أشد الاحترام و يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه

فلما جاء الإسلام زاده حرمة و تعظيما و تشريفا و تكريما.

(وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ)

إِنَّمَا هُوَ الحَجَرُ الذِي كَانَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ يقوم عليه لِبنَاءِ الْكَعْبَةِ لَمَّا ارْتَفَعَ الْجِدَارُ أَتَاهُ إِسْمَاعِيلُ ﷺ بِهِ ليقومَ فَوْقَهُ وَيُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ فَيَضَعُهَا بِيَدِهِ لِرَفْعِ الْجِدَارِ كلَّما كَمَّل نَاحِيَةً انْتَقَلَ إِلَى النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى يَطُوفُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ و هُوَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ كُلَّمَا فَرَغَ مِنْ جِدَارٍ نَقَلَهُ إِلَى النَّاحِيَةِ التِي تَلِيهَا هَكَذَا حَتَّى تَمَّ جِدَارَاتُ الْكَعْبَةِ و كَانَتْ آثَارُ قَدَمَيْه ظَاهِرَةٌ فِيهِ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا مَعْرُوفًا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا
وَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ:أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِك حَدَّثَهُمْ قَالَ:-
رَأَيْتُ الْمَقَامَ فِيهِ أَثَرُ أَصَابِعِهِ ﷺ و إخْمَص قَدَمَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ أَذْهَبَهُ مَسْحُ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ.
*إِنَّمَا أُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا عِنْدَهُ وَ لَمْ يُؤْمَرُوا بِمَسْحِهِ. وَ لَقَدْ تَكَلَّفَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ شَيْئًا مَا تَكَلَّفَتْهُ الْأُمَمُ قَبْلَهَا
وَ لَقَدْ ذُكِرَ لَنَا مَنْ رَأَى أَثَرَ عَقِبِهِ وَ أَصَابِعِهِ فِيهِ فَمَا زَالَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ يَمْسَحُونَهُ حَتَّى اخْلَوْلَقَ وَ انْمَحَى.
قُلْتُ:وَ قَدْ كَانَ الْمَقَامُ مُلْصَقًا بِجِدَارِ الْكَعْبَةِ قَدِيمًا وَ إِنَّمَا أَخَّرَهُ عَنْ جِدَارِ الْكَعْبَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺوَهُوَ أحدُ الْأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الَّذِينَ أُمِرْنا بِاتِّبَاعِهِمْ

1-يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة

و أن المراد بهذا ركعتا الطواف يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم وعليه جمهور المفسرين

2-و يحتمل أن يكون المقام مفردا مضافا فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج و هى المشاعر كلها:

1-من الطواف2-و السعى3-و الوقوف بعرفة 4-و مزدلفة 5-و رمي الجمار6-و النحر و غير ذلك

(مُصَلًّى)معبدا أي: اقتدوا به في شعائر الحج

(وَعَهِدۡنَآ)أوحينا (إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ)

(أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ)أمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك والكفر والمعاصى و من الرجس و النجاسات و الأقذار

ليكون (لِلطَّآئِفِينَ) فيه (وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ)

قدم الطواف لاختصاصه بالمسجد الحرام ثم الاعتكاف لأن من شرطه المسجد مطلقا

(وَٱلۡعَٰكِفِينَ)المقيمين فيه (وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ)المصلين ثم الصلاة مع أنها أفضل لهذا المعنى.

و أضاف البارى البيت إليه لفوائد:-

1- أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره

لكونه بيت الله فيبذلان جهدهما و يستفرغان وسعهما في ذلك.

2- أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.

3- أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه125

(وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ)و إذ دعا إبراهيم لهذا البيت

(رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا)مِنَ الْخَوْفِ لَا يَرْعَبُ أَهْلَهُ وَ قَدْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ شَرْعًا وَ قَدَرًا.

كَقَوْلِهِ{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [الْعَنْكَبُوتِ: 67]

*مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:-لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ

*البخاري 1834-عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺيَوْمَ افْتَتَحَ مَكَّةَ:
«لاَ هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا فَإِنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ القِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ "

(مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ)

(وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ)و يرزق أهله (مِنَ) أنواع (ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ)

ثم قيد ﷺهذا الدعاء للمؤمنين تأدبا مع الله إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق

فجاء الجواب فيه مقيدا بغير الظالم.

فلما دعا لهم بالرزق و قيده بالمؤمن و كان رزق الله شاملا للمؤمن و الكافر و العاصى و الطائع قال تعالى:

(وَمَن كَفَرَ)أرزقهم كلهم مسلمهم و كافرهم

*أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة

*و أما الكافر(فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا)فيتمتع فيها قليلا{كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}[الإِسْرَاءِ]

(ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ)ألجئه وأخرجه مكرها وَ مَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْظِرُهم و يُمْهلهُم ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ

كَقَوْلِهِ{وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ} [الْحَجِّ: 48]

*البخاري4686 - عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ:

{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: 102](إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ 126)

وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾
رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ
وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾
وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾
أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ
وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ
لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

عَنْ وُهَيْبِ بْنِ الْوَرْدِ: أَنَّهُ قَرَأَ:(وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ)
ثُمَّ يَبْكِي وَ يَقُولُ: يَا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ تَرْفَعُ قَوَائِمَ بَيْتِ الرَّحْمَنِ وَأَنْتَ مُشْفق أَنْ لَا يَتَقَبَّلَ مِنْكَ.
*البخارى3364-عن ابْنُ عَبَّاسٍ:.....ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ
قَالَ:وَ تُعِينُنِي؟ قَالَ:وَ أُعِينُكَ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا
قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ
جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَ هُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ وَ هُمَا يَقُولاَنِ:
{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ} [البقرة: 127]قَالَ: فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ
وَ هُمَا يَقُولاَنِ:{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ} [البقرة: 127]
*البخارى3368 - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:
«أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ لَمَّا بَنَوْا الكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ
إِبْرَاهِيمَ؟ فَقَالَ: «لَوْلاَ حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ»فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ:
لَئِنْ كَانَتْ عَائِشَةُ سَمِعَتْ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أُرَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺ تَرَكَ اسْتِلاَمَ الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ يَلِيَانِ
الحِجْرَ إِلَّا أَنَّ البَيْتَ لَمْ يُتَمَّمْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ "
*قُلْتُ: وَ لَمْ تَزَلْ عَلَى بِنَاءِ قُرَيْش حَتَّى أُحْرِقَتْ فِي أَوَّلِ إِمَارَةِ عَبدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ سَنَةِ سِتِّينَ.
وَ فِي آخرِ وِلَايَةِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ لَمَّا حَاصَرُوا ابْنَ الزُّبَيْرِ فَحِينَئِذٍ نَقَضَهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى الْأَرْض
وَ بَنَاهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلاموَأَدْخَلَ فِيهَا الْحِجْرَ وَجَعَلَ لَهَا بَابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا ملصقين بِالْأَرْض
كَمَا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ خَالَتِهِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
و لَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ مُدَّة إِمَارَتِهِ حَتَّى قَتَلَهُ الْحَجَّاجُ فَرَدَّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ بِأَمرِ عَبدِ المَلِكِ بْنِ مَروان لَهُ بِذَلِكَ

*مسلم (1333)عَنْ عَطَاءٍ قَالَ:-
لَمَّا احْتَرَقَ الْبَيْتُ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ حِينَ غَزَاهَا أَهْلُ الشَّامِ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ تَرَكَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ حَتَّى قَدِمَ النَّاسُ الْمَوْسِمَ يُرِيدُ أَنْ يُجَرِّئَهُمْ - أَوْ يُحَرِّبَهُمْ - عَلَى أَهْلِ الشَّامِ فَلَمَّا صَدَرَ النَّاسُ قَالَ:-
يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الْكَعْبَةِ أَنْقُضُهَا ثُمَّ أَبْنِي بِنَاءَهَا؟ أَوْ أُصْلِحُ مَا وَهَى مِنْهَا؟
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِنِّي قَدْ فُرِقَ لِي رَأْيٌ فِيهَا أَرَى أَنْ تُصْلِحَ مَا وَهَى مِنْهَا وَ تَدَعَ بَيْتًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَ أَحْجَارًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَبُعِثَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ:-
لَوْ كَانَ أَحَدُكُمُ احْتَرَقَ بَيْتُهُ مَا رَضِيَ حَتَّى يُجِدَّهُ فَكَيْفَ بَيْتُ رَبِّكُمْ؟
إِنِّي مُسْتَخِيرٌ رَبِّي ثَلَاثًا ثُمَّ عَازِمٌ عَلَى أَمْرِي فَلَمَّا مَضَى الثَّلَاثُ أَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَنْقُضَهَا
فَتَحَامَاهُ النَّاسُ أَنْ يَنْزِلَ بِأَوَّلِ النَّاسِ يَصْعَدُ فِيهِ أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى صَعِدَهُ رَجُلٌ
فَأَلْقَى مِنْهُ حِجَارَةً فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ النَّاسُ أَصَابَهُ شَيْءٌ تَتَابَعُوا فَنَقَضُوهُ حَتَّى بَلَغُوا بِهِ الْأَرْضَ
فَجَعَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ أَعْمِدَةً فَسَتَّرَ عَلَيْهَا السُّتُورَ حَتَّى ارْتَفَعَ بِنَاؤُهُ
*مسلم(1333) وَفَدَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي خِلَافَتِهِ فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ:
مَا أَظُنُّ أَبَا خُبَيْبٍ يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ سَمِعَ مِنْ عَائِشَةَ مَا كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْهَا قَالَ الْحَارِثُ:-
بَلَى أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْهَا قَالَ: سَمِعْتَهَا تَقُولُ مَاذَا؟ قَالَ: قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:
«إِنَّ قَوْمَكِ اسْتَقْصَرُوا مِنْ بُنْيَانِ الْبَيْتِ وَلَوْلَا حَدَاثَةُ عَهْدِهِمْ بِالشِّرْكِ أَعَدْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ فَإِنْ بَدَا لِقَوْمِكِ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ فَهَلُمِّي لِأُرِيَكِ مَا تَرَكُوا مِنْهُ» فَأَرَاهَا قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ
فَهَذَا الْحَدِيثُ كَالْمَقْطُوعِ بِهِ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْهَا مِنْ طُرُقٍ صَحِيحَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَدَلَّ هَذَا عَلَى صَوَابِ مَا فَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ. فَلَوْ تُرِكَ لَكَانَ جَيِّدًا.
وَ لَكِنْ بَعْدَ مَا رَجَعَ الْأَمْرُ إِلَى هَذَا الْحَالِ فَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنْ يُغَيَّرَ عَنْ حَالِهِ كَمَا ذُكِرَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ الرَّشِيدِ-أَوْ أَبِيهِ الْمَهْدِيِّ-أَنَّهُ سَأَلَ الْإِمَامَ مَالِكًا عَنْ هَدْمِ الْكَعْبَةِ وردِّها إِلَى مَا فَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ:-لَا تَجْعَلْ كَعْبَةَ اللَّهِ مَلْعَبَةً لِلْمُلُوكِ لَا يَشَاءُ أَحَدٌ أَنْ يَهْدِمَهَا إِلَّا هَدَمَهَا.
فَتَرَكَ ذَلِكَ الرَّشِيدُ.نَقَلَهُ عِيَاضٌ وَ النَّوَاوِيُّ وَلَا تَزَالُ –وَ اللَّهُ أَعْلَمُ -هَكَذَا إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ
إِلَى أَنْ يخرِّبَها ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِفي البخاري591 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:
«يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ»عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:
كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ(=من الفحج وهو تباعد ما بين الساقين) يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا»
–أي:و اذكر إبراهيم و إسماعيل في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس و استمرارهما على هذا العمل العظيم و كيف كانت حالهما من الخوف و الرجاء

(رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ)حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما حتى يحصل فيه النفع العميم.

(إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ127

(رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ)مُسْتَسْلِمِينَ لِأَمْرِكَ خَاضِعِينَ لِطَاعَتِكَ لَا نُشْرِكُ مَعَكَ فِي العبادة أَحَدًا سِوَاكَ

(وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ)

و دعوا لأنفسهما و ذريتهما بالإسلام الذي حقيقته:–

1- خضوع القلب2-و انقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح.
وَ هَذَا الدُّعَاءُ مِنْ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ:
{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الْفُرْقَانِ: 74] .
وَهَذَا الْقَدْرُ مَرْغُوبٌ فِيهِ شَرْعًا فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّةِ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُحِبَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}
قَالَ:{وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}وَ هُوَ قَوْلُهُ: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إِبْرَاهِيمَ: 35]
وَ قَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
أَنَّهُ قَالَ: "إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ:صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يدعو له"
(وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا)مَذَابِحَنَا- أي:علمناها على وجه الإراءة و المشاهدة ليكون أبلغ.
1- يحتمل أن يكون المراد بالمناسك: -أعمال الحج كلها كما يدل عليه السياق و المقام
2-و يحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك و هو الدين كله و العبادات كلها كما يدل عليه عموم اللفظ
لأن النسك: -التعبد و لكن غلب على متعبدات الحج تغليبا عرفيا فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع و العمل الصالح
و لما كان العبد-مهما كان-لا بد أن يعتريه التقصير و يحتاج إلى التوبة قالا
(وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ)128
(رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ)في ذريتنا(رَسُولًا مِّنْهُمْ)ليكون أرفع لدرجتهما و لينقادوا له و ليعرفوه حقيقة المعرفة.
(يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ)لفظـا وحفظـا وتحفيظـا
(وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ)القرآن(وَٱلْحِكْمَةَ)السنة و قيل الفهم في الدين
(وَيُزَكِّيهِمْ)بالتربية على الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الردية التي لا تزكي النفوس معها.
(إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ)القاهر لكل شيء الذي لا يمتنع على قوته شيء.
(ٱلْحَكِيمُ)الذي يضع الأشياء مواضعها فبعزتك وحكمتك ابعث فيهم هذا الرسول. فاستجاب الله لهما فبعث الله هذا الرسول الكريم الذي رحم الله به ذريتهما خاصة وسائر الخلق عامة و لهذا قال عليه الصلاة و السلام:-
« أنا دعوة أبي إبراهيم »
*أحمد 22261سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ؟
قَالَ: " دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى وَ رَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ "

*وَ الْمُرَادُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ نَوّه بِذِكْرِهِ وَشَهَرَهُ فِي النَّاسِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ وَلَمْ يَزَلْ ذِكْرُهُ فِي النَّاسِ مَذْكُورًا مَشْهُورًا سَائِرًا حَتَّى أَفْصَحَ بِاسْمِهِ خاتمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَسَبًا وَ هُوَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ حَيْثُ قَامَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ خَطِيبًا وَ قَالَ:{إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصَّفِّ: 6]129

-و لما عظم الله إبراهيم ﷺ هذا التعظيم و أخبر عن صفاته الكاملة قال تعالى:-

(وَمَن)ما (يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ)بعد ما عرف من فضله (إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ)

جهلها و امتهنها و رضي لها بالدون و باعها بصفقة المغبون كما أنه لا أرشد و أكمل ممن رغب في ملة إبراهيم

ثم أخبر عن حالته في الدنيا وا لآخرة فقال:

(وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ)اخترناه و وفقناه للأعمال التي صار بها من المصطفين الأخيار

(فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)الذين لهم أعلى الدرجات130

(إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ)امتثالا لربه-أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْإِخْلَاصِ لَهُ وَ الِاسْتِسْلَامِ وَ الِانْقِيَادِ فَأَجَابَ إِلَى ذَلِكَ شَرْعًا وَقَدَرًا.

(قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ)إخلاصا و توحيدا و محبة و إنابة فكان التوحيد لله نعته131

(وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ)ثم ورثه في ذريته و وصاهم به و جعلها كلمة باقية في عقبه و توارثت فيهم حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه. فأنتم - يا بني يعقوب - قد وصاكم أبوكم بالخصوص فيجب عليكم كمال الانقياد و اتباع خاتم الأنبياء قال:

(يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ)اختار و تخير (لَكُمُ ٱلدِّينَ)رحمة بكم و إحسانا إليكم

فقوموا به و اتصفوا بشرائعه و انصبغوا بأخلاقه حتى تستمروا على ذلك

(فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ)

فلا يأتيكم الموت إلا و أنتم عليه لأن من عاش على شيء مات عليه و من مات على شيء بعث عليه132

و لما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم و من بعده يعقوب قال تعالى منكرا عليهم:

(أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ)حضورا(إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ)مقدماته و أسبابه

(إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ)فقال لبنيه على وجه الاختبار و لتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به:-

(مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي)؟فأجابوه بما قرت به عينه

(قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ)فلا نشرك به شيئا و لا نعدل به أحدا

*وَ هَذَا مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ لِأَنَّ إِسْمَاعِيلَ عَمُّهُ وَ قَدِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ جَعَلَ الْجِدَّ أَبًا وَحَجَبَ بِهِ الْإِخْوَةَ

(إِلَٰهًا وَٰحِدًا)نُوَحِّده بِالْأُلُوهِيَّةِ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا غَيْرَهُ (وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ)مُطِيعُونَ خَاضِعُونَ

كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}[آل عمران: 83]

*مسلم(2365) عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:
«أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ الْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ(=الإخوة لأب من أمهات شتى) وَ لَيْسَ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ نَبِيٌّ»

-فجمعوا بين التوحيد و العمل. و من المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب لأنهم لم يوجدوا بعد133

فإذا لم يحضروا فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية لا باليهودية ثم قال تعالى:-

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ)مضت(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ)

كل له عمله و كل سيجازى بما فعله لا يؤخذ أحد بذنب أحد و لا ينفع أحدا إلا إيمانه و تقواه

فاشتغالكم بهم و ادعاؤكم أنكم على ملتهم و الرضا بمجرد القول أمر فارغ لا حقيقة له

بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها هل تصلح للنجاة أم لا؟

*إِنَّ السَّلَفَ الْمَاضِينَ مِنْ آبَائِكُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَالِحِينَ لَا يَنْفَعُكُمْ انْتِسَابُكُمْ إِلَيْهِمْ إِذَا لَمْ تَفْعَلُوا خيراً يعود نفعه عَلَيْكُمْ فَإِنَّ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ التِي عَمِلُوهَا و لكم أعمالكم:

(وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

أبو داود 3643 -عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:وَ مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»134

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾
قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ
وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾
قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ
قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

(وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ)

دعا كل من اليهود و النصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم زاعمين أنهم هم المهتدون و غيرهم ضال.

قل له مجيبا جوابا شافيا:-(قُلْ بَلْ)نتبع

(مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ)مقبلا على الله معرضا عما سواه قائما بالتوحيد تاركا للشرك و التنديد.

فهذا الذي في اتباعه الهداية وفي الإعراض عن ملته الكفر و الغواية.

(وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)

هذه الآية الكريمة قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به.

و اعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول و إقراره المتضمن لأعمال القلوب و الجوارح

و هو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام و تدخل فيه الأعمال الصالحة كلها فهى من الإيمان و أثـر من آثــاره

فحيث أطلق الإيمـــان دخل فيه ما ذكر و كذلك الإســـلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان

-فإذا قـــرن بينهما:- كان الإيمـــان اسما لما في القلب من الإقرار و التصديق

و الإســـلام اسما للأعمال الظاهرة و كذلك إذا جمع بين الإيمان و الأعمال الصالحة

(قُولُوٓاْ)أى:بألسنتـــكم متواطئـــة عليها قلوبكم و هذا هو القول التام المترتب عليه الثواب و الجزاء

۞فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب نفاق و كفر

✡فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة و إن كان العبد يؤجر عليه إذا كان خيرا و معه أصل الإيمان لكن فرق بين القول المجـــــرد و المقترن به عمل القلب.

(ءَامَنَّا)و نحوه مما فيه صدور الفعل منسوبا إلى جميع الأمة إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعا و الحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحدا و عملهم متحدا

و في ضمنه النهى عن الافتراق و فيه: أن المؤمنين كالجسد الواحد.

(قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ)دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد بل على وجوب ذلك بخلاف قوله:« أنا مؤمن » و نحوه

فإنه لا يقال إلا مقرونا بالاستثناء بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس والشهادة على نفسه بالإيمان.

(وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا)يشمل القرآن و السنة لقوله تعالى:{ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } [النساء: 113]

فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله و سنة رسوله –من صفات الباري–وصفات رسله–واليوم الآخر–و الغيوب الماضية والمستقبلة–و الإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية–و أحكام الجزاء و غير ذلك.

(وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ)إلى آخر الآية فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء

(وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ)
بَنُو يَعْقُوبَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا وَلَدَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ فَسُمُّوا الْأَسْبَاطَ.

(وَمَآ أُوتِيَ)أُعطى (مُوسَىٰ)من التوراة (وَعِيسَىٰ)من الإنجيل

و الإيمان بالأنبياء عموما و خصوصا ما نص عليه في الآية لشرفهم و لإتيانهم بالشرائع الكبار.

فالواجب في الإيمان بالأنبياء و الكتب :–أن يؤمن بهم على وجه العمـــــوم و الشمـــــول

ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب الإيمان به مفصلا.

(وَمَآ أُوتِيَ)أُعطى(ٱلنَّبِيُّونَ)جميعًا

دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية و الأخروية.

*لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك و المال ونحو ذلك بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب و الشرائع

*و فيه أن الأنبياء مبلغون عن الله و وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه ليس لهم من الأمر شيء.

(مِن)وحى(رَّبِّهِمۡ)

إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل عليهم الكتب و يرسل إليهم الرسل فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدى و لا هملا.

*و إذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم ففيه الفرق بين الأنبياء و بين من يدعى النبوة

و أنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه فالرسل لا يدعون إلا إلى خير و لا ينهون إلا عن كل شر

و كل واحد منهم يصدق الآخر و يشهد له بالحق من غير تخالف و لا تناقض لكونه من عند ربهم

{ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: 82]

–و هذا بخلاف من ادعى النبوة فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم و أوامرهم و نواهيهم كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع وعرف ما يدعون إليه.

(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ)

بل نؤمن بهم كلهم هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين.

فاليهود و النصارى و الصابئون و غيرهم–و إن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل و الكتب–

فإنهم يكفرون بغيره فيفرقون بين الرسل والكتب بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به وينقض تكذيبهم تصديقهم

–فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به قد صدق سائر الرسل و خصوصا محمد ﷺ

–فإذا كذبوا محمدا فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به فيكون كفرا برسولهم.

*فلما بيَّن تعالى جميع ما يؤمن به عموما و خصوصا و كان القول لا يغني عن العمل قال:

(وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)خاضعون لعظمته منقادون لعبادته بباطننا و ظاهرنا مخلصون له العبادة

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة – على إيجازها و اختصارها – على:–

1– أنواع التوحيد الثلاثة:–1– توحيد الربوبية 2–و توحيد الألوهية3–و توحيد الأسماء والصفات

2–و اشتملت على الإيمان بجميع الرسل

3–و جميع الكتب

4–و على التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم

5–و على التصديق بالقلب و اللسان و الجوارح و الإخلاص لله فى ذلك

6–و على الفرق بين الرسل الصادقين ومن ادعى النبوة من الكاذبين

7– و على تعليم البارى عباده كيف يقولون

8– و رحمته و إحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا و الآخرة

فسبحان من جعل كتابه تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

*صحيح مسلم (727) عن ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ فِي الْأُولَى مِنْهُمَا: {قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا} [البقرة: 136] الْآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ وَ فِي الْآخِرَةِ مِنْهُمَا:

{آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 52] 136

(فَإِنْ ءَامَنُواْ)فإن آمن أهل الكتاب(بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ)–يا معشر المؤمنين–من جميع الرسل و جميع الكتب الذين أول من دخل فيهم وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺو القـــــرآن و أسلموا لله وحده و لم يفرقوا بين أحد من رسل الله

(فَقَدِ ٱهْتَدَواْ)للصراط المستقيم الموصل لجنات النعيم–أى:فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان

لا كما زعموا بقولهم: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾[البقرة:135]

فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه و « الهدى » هو العلم بالحق و العمل به

(وَّإِن تَوَلَّوْاْ)عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ و ضد((الهدي))الضلال عن العلم و الضلال عن العمل بعد العلم

(فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ)و هو الشقاق الذي كانوا عليه لما تولوا و أعرضوا

فالمشاق:هو الذي يكون في شق وا لله و رسوله في شق

و يلزم من المشاقة:–1– المحادة 2–و العداوة البليغة التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول

(فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ)لهذا وعد الله رسوله أن يكفيـــــه إيـــــاهم

(وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ)لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات

(ٱلْعَلِيمُ)بما بين أيديهم وما خلفهم بالغيب و الشهادة بالظواهر و البواطن

فإذا كان كذلك كفـــــاك الله شــــــرهم

و قد أنجز الله لرسوله وعده و سلَّطه عليهم حتى:–

1–قتــــل بعضهم 2–و ســـــبى بعضهم3– و أجـــــلى بعضهم4–و شـــــردهم كل مشرد.

ففيه معجزة من معجزات القرآن و هو الإخبار بالشيء قبل وقوعه فوقع طِبْقِ ما أخبر137

(صِبْغَةَ ٱللَّهِ)الزموا صبغة الله و هو دينه و قوموا به قياما تاما بجميــــــع أعماله الظـــــاهرة و البــــاطنة و جميــــــع عقـــــائده في جميع الأوقات((حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم))

فإذا كان صفة من صفاتكم أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره طــــوعا و اختيـــــارا و محبـــــة

و صار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية

لحـــــث الدين على:–

1– مكارم الأخلاق2– و محاسن الأعمال 3–و معالي الأمور

فلهذا قال – على سبيل التعجب المتقرر للعقول الـــــزكية(وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً)

لا أحسن صبغة من صبغته .

وإذا أردت أن تعرف نموذجا يبين لك الفرق بين صبغة الله و بين غيرها من الصبغ فقس الشيء بضده

✡فكيف ترى في عبد آمن بربه إيمانا صحيحا أثر معه خضوع القلب و انقياد الجوارح

فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن و فعل جميل و خلق كامل و نعت جليل و يتخلى من كل وصف قبيح و رذيلة و عيب

فوصفه:الصدق في قوله وفعله والصبر والحلم والعفة والشجاعة والإحسان القولي والفعلي ومحبة الله وخشيته وخوفه ورجاؤه فحاله الإخلاص للمعبود والإحسان لعبيده

*فقسه بعبد كفر بربه وشرد عنه و أقبل على غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة من الكفر و الشرك و الكذب و الخيانة و المكر والخداع و عدم العفة و الإساءة إلى الخلق في أقواله و أفعاله

فلا إخلاص للمعبود ولا إحسان إلى عبيده فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما و يتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله و فى ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه.

و فى قوله: (وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ)

فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت و الاستقرار ليدل على اتصافهم بذلك و كونه صار صبغة لهم ملازما.

بيان لهذه الصبغة وهي القيام بهـــــذين الأصلين:–

1– الإخــــــلاص2– و المتـــــابعة

لأن « العبـــــادة »:–اسم جامع لكل ما يحبه الله و يرضاه من الأعمال و الأقوال الظاهرة و الباطنة و لا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله

و الإخلاص:أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال فتقديم المعمول يؤذن بالحصر138

(قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا)أَتُنَاظِرُونَنَا(فِى)تَوْحِيد (ٱللَّهِ) وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَ الِانْقِيَادِ وَ اتِّبَاعِ أَوَامِرِه وَ تَرْكِ زَوَاجِرِهِ

(وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ)

المحاجة هى:المجادلة بين اثنين فأكثر تتعلق بالمسائل الخلافية حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله و إبطال قول خصمه فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك

و المطلوب منها:–أن تكون بالتي هي أحسن

1–بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق2– ويقيم الحجة على المعاند 3–ويوضح الحق ويبين الباطل

فإن خرجت عن هذه الأمور كانت:–

1–ممـــــــاراة 2–و مخـــــــاصمة لا خير فيها 3–و أحدثت من الشر ما أحدثت

فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولـــــى بالله من المسلمين و هذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل.

فإذا كان رب الجميع واحدا ليس ربا لكم دوننا وكل منا ومنكم له عمله فاستوينا نحن وإياكم بذلك.

فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره

لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة وتفريق بين متماثلين ومكابرة ظاهرة.

و إنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده و هذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم

فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص

فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن و أولياء الشيطان

بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول و لا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول

ففى هذه الآية إرشاد لطيف :-

لطـــــريق المحـــــاجة و أن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين و الفرق بين المختلفين

(وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ)الْمُتَصَرِّفُ فِينَا وَ فِيكُمْ الْمُسْتَحِقُّ لِإِخْلَاصِ الْإِلَهِيَّةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

{وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ}نَحْنُ بُرَآءُ مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ بُرَآء مِنَّا

كَمَا قَالَ{وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}[يُونُسَ: 41]

(وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ)نَحْنُ بُرَآءُ مِنْكُمْ كَمَا أَنْتُمْ بُرَآءُ مِنَّا وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ أَيْ فِي الْعِبَادَةِ وَ التَّوَجُّهِ ﴿١٣٩﴾

(أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ)

*قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَانُوا يَقْرَؤُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ الذي أَتَاهُمْ: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسلامُ وَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا بُرَآءَ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ فشهِدَ اللَّهُ بِذَلِكَ وَأَقَرُّوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِلَّهِ فَكَتَمُوا شَهَادَةَ الله عندهم من ذلك.

–وهذه دعوى أخرى منهم ومحاجة في رسل الله زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.

فرد الله عليهم بقوله:(قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ)بل الله اعلم

فالله يقول﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[آل عمران:67]

و هم يقولون: بل كان يهوديا أو نصرانيا.

فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك

فأحد الأمرين متعين لا محالة و صورة الجواب مبهم وهو في غاية الوضوح والبيان حتى إنه – من وضوحه –

لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق ونحو ذلك لانجلائه لكل أحد كما إذا قيل:-

الليل أنور أم النهار؟و النار أحر أم الماء؟و الشرك أحسن أم التوحيد؟و نحو ذلك.

و هذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء

لم يكونوا هودا ولا نصارى فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم و لهذا قال تعالى:-

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ)فهى شهادة عندهم مودعة من الله لا من الخلق

فيقتضي الاهتمام بإقامتها فكتموها و أظهروا ضدها جمعوا بين:-

1- كتم الحق و عدم النطق به 2- و إظهار الباطل والدعوة إليه

أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى و الله و سيعاقبهم عليه أشد العقوبة فلهذا قال:(وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

بل قد أحصى أعمالهم و عدها و ادخر لهم جزاءها فبئس الجزاء جزاؤهم و بئست النار مثوى للظالمين

و هذه طريقة القرآن في ذكر العلم و القدرة عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها.

فيفيـــــد ذلـــــك:-1- الوعد و الوعيد 2- و الترغيب و الترهيب

3-و يفيد أيضا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها

و موجب من موجباتها و هى مقتضية له140

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

تقدم تفسيرها و كررها لقطـــــع التعـــــلق بالمخــــــلوقين

و أن المعول عليه ما اتصف به الإنسان لا عمل أسلافه و آبائه

فالنفع الحقيقي بالأعمال لا بالانتساب المجرد للرجال و فـــــى الآيــــــــة :-

1-قطع للتعلق بالمخلوقين

2-و عدم الاغترار بالانتساب إليهم

3-و أن العبرة بالإيمان بالله وعبادته وحده واتباع رسله

4-و أن من كفر برسول منهم فقد كفر بسائر الرسل141